الفصل الثانى

السيرة

١

منبت البارودى ومَرْباه

لا نكاد نمضى إلى أواخر العقد الرابع من القرن الماضى حتى تدقّ ربّةُ الشعر البشائر بمولد محمود سامى البارودى الذى اختارته من دون العرب لعصره وأتاحت له من الموهبة الفنية ما يُعيد به إلى الشعر العربى رونقه القديم وما كان يشيع فيه من نضرة وحياة . وهو سليل أسرة جركسية ، تنتمى إلى حكام مصر المماليك ، وكان أحد أجداده — مراد بن يوسف بن شاويش — ملتزماً فى العصر العثمانى لبلده إيتاى البارود إحدى بلاد محافظة البحيرة ، ومن ثمّ لُقب بالبارودى نسبة إليها، وحمل أبناؤه بعده اللقب ، ويلقانا منهم فى عهد محمد على شخص بين كُشّافه يسمى عبد الله ، ووظيفة الكاشف حينئذ تقابل وظيفة المأمور فى أيامنا ، وكانت وظيفة مرموقة . وكان له ابن يسمى حسن حسنى ما زال يترقّى فى الجيش المصرى حتى أصبح من أمراء المدفعية ، ثم عُين مديراً لمديرية دنقلة فى السودان .

وقد ولد لهذا الضابط الذى كانت تمتلىء نفسه بالطموح والشعور بالشجاعة والقوة محمود سامى فى السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٥٥ المقابل للسابع من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٩ وفتح الطفل عينيه على هَدْهدة ربة الشعر وما تثيره بجناحيها حول مهده من حركات تبعث فيه الحيوية والنشاط ، كما فتحهما على أسرته وما تستشعره من بأس واعتزاز بالنفس، اعتزازاً تجسّد فى أبيه الذى رُقّى إلى أعلى المناصب فى الجيش ، ومضى يطمح إلى تقلد المناصب الكبرى ، حتى لو نزحت به عن مسقط رأسه ، بعيداً فى دنقلة ، وكأنما كان حتفه فى أمنيته ، أو كأنما أرادت ربّة الشعر للطفل أن لا يظل ناعماً بحنان أبيه وما يغمر به حياته من لين العيش ورافهه ، أو قل كأنما أرادت له أن يمسّ الحزن قلبه ، وهو لا يزال فى

المهد صبياً ،حتى تذكى جذوة الشاعرية فيه ،فإن الحزن من شأنه أن يصقل النفس وأن يجعلها أكثر صفاء ، وأكثر رقة ، فلم يكد يبلغ السنة السابعة من عمره ، حتى سلبه الموت أباه ، مخلّفا له الحسرة واللوعة ، ومن قوله فى رثائه حين ناهز العشرين من عمره :

لا يَرْهَبُ الخَصْمُ إبراقى وإرعادى(١) ... مضَى ، وخلّفنى فى سنّ سابعة
يأوى إلىّ ولا يَسْعَى لإنجادى(٢) ... إذا تلفّتُّ لم ألمح أخا ثقة
والقلبُ ليس له من حزنه فادى(٣) ... فالعينُ ليس لها من دمعها وَزَرٌ

فكارثته فى أبيه لم تدلع فى قلبه الحزن وحده بل دلعت معه تجربة مبكرة له بالناس وما تزخر به حياتهم من غدر وكيد ومكر وظلم ، وهى تجربة ظلت أصداؤها تتردّد فى شعره ، وزادتها الأحداث المختلفة فى حياته حِدّة إلى حدة .

وقد كفَلَتْه أمه ، وكانت جركسية كأبيه ، وقامت على تربيته خير قيام ، فأحضرتْ له — شأن أترابه حينئذ من ذوى النعمة واليسار — المعلمين كى يؤدبوه ويلقنوه القرآن الكريم وشيئًا من الفقه الإسلامى ومن التاريخ والحساب والشعر . ويبدو من ذلك فى وضوح أن الثقافة العربية الإسلامية كانت هى الثقافة التى تُجلّها أسرة البارودى ، وتُشْغَفُ بها حبًّا ، وهو شغف ، سال من ينابيعه الشعرُ على لسان خاله إبراهيم ، وفى ذلك يقول :

لم أرِثْه عن كَلالَهْ(٤) ... أنا فى الشعر عريقٌ
فيه مشهورَ المقاله ... كان إبراهيمُ خالى

وهو لم يرِثِ الشعر عن خاله وأسرته فحسب ، وإنما ورث أيضًا إيمانًا عميقًا بالعروبة والإسلام ، ظلت ربّةُ الشعر تذيع أحاسيسهما على لسانه . وكان من

---

(١) الإبراق والإرعاد : التهديد والوعيد .
(٢) ولا يسعى : يريد البارودى ولا أجد أحداً يسعى فحذف لضرورة الشعر إيجازاً ، أولا زائدة .
(٣) الوزر : الملجأ والمعتصم . (٤) الكلالة : النسب البعيد .

حسن الحظ لشعرنا الحديث أن أسرته لم تتجه به إلى التعليم الدينى الذى كان ينهض به الأزهر لعصره ، إذ كان قد انتهى إلى صورة جافّة معقدة ، لعله لو اقتحمها لضلّ فى شِعابها ومُنْعَرجاتها ولما استطاع أن يَخْلُصَ لنفسه ولا لشعره ، وأيضًا فإنها لم تتجه به إلى التعليم المدنى ، ونقصد التعليم التجهيزى الذى انتشر فى عهد محمد على ، وظلت منه بقيّة فى عهد عباس الأول ، لأن العناية بالشعر العربى فى هذا التعليم كانت محدودة ، ولم يكن من شأنها أن تُرْضى أصحاب المواهب من أمثال البارودى .

فتعلُّمه فى سنيه الأولى بمنزله كان ذا عائدة عظيمة عليه وعلى الشعر العربى الحديث ، ذلك أنه وجد وقتًا فسيحًا أمامه كى يقرأ فى حرية ما يتذوّقه من الشعر القديم حافظًا له مرة ، ومردداً مرة أخرى . وبذلك أتيح له أن يعاشر الشعراء القدماء فى سن مبكرة ، وأن يتصل بهم اتصالا شديداً ، اتصالا ظل يزداد توثقًا مع الزمن ، وظل يؤثر فى مزاجه وخياله وعقله وقلبه . ونُراه فى سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م يلتحق بالمدرسة الحربية يريد أن يتخرج منها ضابطًا على شاكلة أبيه رغم ما نُكبت به مصر فى جيشها منذ مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ وكأنما كان يستشعر فى قوة أمجاد أبيه الحربية وأمجاد أمته العسكرية التى سجلتها بدمائها فى عهد محمد على.

ولو أنه لم يبدأ شغفه بالشعر العربى وشعرائه القدماء قبل التحاقه بهذه المدرسة لما قُدِّر لشاعريته أن تتفتّح فى سن مبكرة ، بل ربما حالت بينه وبين الشعر أو صرفته عنه ، إذ كانت تُعْنى بتعليم تلاميذها التركية وآدابها ، وكانت تسدُّ عليهم كل طريق للعناية بالعربية فضلا عن أشعارها ، مُسْرفة فيما تأخذهم به من ضروب العقاب حين يتكلمون بها ، أو يتحدثون ، إذ كان الكلام بها والحديث فى رُدهات المدرسة يُعَدُّ جُرْمًا لا يُغْتَفَرُ ، جرمًا يُنْزِل بمن اقترفه أعنف ما يكون من صور العقاب ، وفى ذلك يقول الشيخ المهدى فى مذكرات الأدب التى كان يُمْليها فى مطلع هذا القرن على تلامذة مدرسة القضاء الشرعى : « كانت اللغة العربية مضطهدة فى عهد عباس الأول إلى حد أن من تكلم بها من طلبة المدارس الحربية توضَعُ فى فيه العُقْلة التى توضع فى فم الحمار حينما يُقْمَصّ ، ويبقى كذلك نهاراً كاملاً عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن فى أثناء فُسْحته » .

وفى هذه الأيام من عهد عباس الأول دخل البارودى المدرسة الحربية ، فلم تستطع أن تردّه عن مناهل الشعر العربى القديم ، بل لقد مضى يَعْكُفُ عليها ويسرف فى العكوف ، وكأنما أصبحت جزءاً من نفسه . وكانت العروبة تتعمق فى هذه النفس بحكم أسرته وتعلقها بها كما قدمنا وبحكم بيئته المصرية العربية ، فَعظُمَ حبه للشعر العربى ، ومضى يعاشر شعراءه القدماء ، يقرؤهم وتتمثّل نفسه ما يقرؤه . وكان ما يزال فى فتوّة الصبا ، فأكبّ على شعراء الحماسة وملكوا عليه قلبه ، لما صوروا من المعارك ، ولما بثوا فى تصويرهم من أحاسيس عارمة بمغالبة الحياة ومن مشاعر قوية بعلو الهمة وبتحقيق الآمال العريضة ، مشاعر من شأنها أن تدفع صاحبها دفعًا قويًّا إلى طلب المجد يسلك إليه كلّ سبيل .

وتخرّج فى المدرسة الحربية برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م لأوائل عهد سعيد ، فمضى يغذى موهبته بالشعر القديم ، وكانت المطابع قد أخذت تُعْنَى بنشر بعض الدواوين ، فاتسعت أمامه فرصة الاطلاع والقراءة . على أنه لم يكن يكتفى بما طُبع منها ، فقد كان يطلب نفائسها التى لا تزال مخطوطة والتى كان يعلوها الغبار حيث ترقد فى مكتبات المساجد . ومضى يعبُّ وينهل محولا إلى نفسه هذا السَّيْل الغزير ، وكان أكثر ما يستهويه فيه — كما قدمنا — أشعار الحماسة والبطولة والقوة ، فكان ما يزال يرددها على لسانه وسمعه ، وكان ما يزال يتغنى بفرائدها محسًّا أن كل بيت فيها ، بل كل كلمة وكل حرف يَنْفَصل من ذات نفسه ويصدر من صميم قلبه . وكانت تقترن بهذه الأشعار فتوة حادة يتغنى فيها الشعراء بالحب ومشاعره والقَنَص ومشاهده ، كما يتغنون بالخمر ودِنانها وملاذها ونُدْمانها ، فانسكبت هذه الفتوة فى روح البارودى وأصبحت جزءاً من نوازع نفسه . وكان يقترن بها أيضًا عند المتنبّى ونظرائه ضرب واسع من الحكمة ، ولم يلبث أن سرى فى حنايا عقله وقلبه .

وتفجّر ينبوع الشعر على لسانه ، ونفسه تغلى كالمرجل ، بما يتمثل من شعر الحماسة القديم وما ينطوى فيه من فتوة ، وبما يتراءى له فى الأفق البعيد من أمجاد أسلافه المماليك الذين عصفوا بالصليبيين والمغول ومزّقوهم كل ممزّق ، وبما يتراءى له فى الأفق القريب من أمجاد أبيه وأقرانه فى حروب محمد على ، هؤلاء الذين ركزوا

أعلام مصر على مشارف الشام وبلاد العرب وفى سهول الأناضول . ولم تلبث رَبَّة الشعر أن حلّت عقال لسانه ، فغنى يشدو بأنغام ، تفيض قوة وحماسة وطموحاً إلى المجد لا حد له ، وكأنه يريد أن يحقق ما تعنو له الوجوه ، بل ما تنقطع دونه الرقاب ، على شاكلة قوله :

هو ما قلتُ فاخْتَرْنها صَباحا غارةً تملأُ الفَضاء رِماحا

لا ترى بينها سوى عبْقَرِيٍّ يـألف الطَّعْنَ نَجْدةً وارتياحا

لَهِجٌ بالحروب لايَأْلَفُ الخَفْـ ـضَ ولايصحب الفتاةَ الرَّداحا[1]

مِسْعرٌ للوَغَى أخو غَدوات تجعل الأَرْضَ مَأْتماً وصِياحا[2]

لا يُرَى عاتباً على شِيَمِ الدَّهْـ ـرِ ولا عابثـاً ولا مزّاحا

يَفْعَلُ الفَعْلَةَ التى تَبْهرُ النَّا س وتَرْنو لها العيونُ طِماحا

والبيت الأخير يصور مدى ما كان يطمح إليه من الإتيان بأفعال مجيدة تعزُّ على أمثاله . وظل هذا الطموح يرافقه طوال حياته ، بل ظل يشب به ، حتى حلّق فى مراقى المجد واعتلى منصة الوزارة . وكان فى هذه الفترة من حياته فترة الشباب المتقد يحلم بالمجد الحربى ، ومن ثَمَّ مضى فى هذه الأبيات يبرق ويرعد مهدداً بغارة لا تبقى ولا تذر ، ولكن أين يسوق هذه الغارة وأين تظهر عبقريته الحربية وقد أصبح الجيش المصرى بعد مؤتمر لندن مقصوص الأجنحة لا يستطيع نهوضاً ؟ لقد فكر وقدّر وهداه تفكيره وتقديره إلى أن يترك الجيش ؛ بل يترك وطنه كله إلى الآستانة حاضرة الدولة الكبرى ؛ لعلها تحقق له من المجد السريع ما لم يحققه الجيش . وسرعان ما التحق هناك بوزارة الخارجية . وفرحت رَبَّةُ الشعر بهذا الجو الجديد الذى سيتيح له أن يدعم صلته بالآداب التركية ؛ وكان قد ثقف منها شيئاً فى المدرسة الحربية، وهاهو اليوم يصحب الترك فى حياته اليومية . ويصحب أدباءهم فى حياته الأدبية ، وتشتد صلته بهم اشتداداً يدفعه إلى أن يجاريهم ويحاكيهم فيما

---

(١) الخفض : النعمة ونعومة العيش . الرداح : المملوءة الجسم .

(٢) مسعر : موقد لنار الحرب .

ينظمون وينثرون ، فإذا له شعر ونثر تركيان ، ويظهر أن ما صنعه منهما لم يكن يرضيه ، ومن ثَمَّ سقط من يد الزمن .

ولم تَعْقد رَبَّة الشعر حينئذ صلةً بينه وبين الآداب التركية فحسب ، فقد عقدت أيضا صلة بينه وبين الآداب الفارسية ، فتعلم لغتها وأتقنها ، ثم أخذ ينظم فيها على شاكلة ما نظم فى التركية . وكأنما أرادت رَبَّةُ الشعر أن تجمع له الأسباب التى جمعتها قديمًا للشعراء النابهين فى أوائل العصر العباسى ، فإذا هم يبعثون الشعر بعثًا جديداً ، وكان فى مقدمة هذه الأسباب ما ثقفوه من الآداب الفارسية ، وإذن فلتهيئ ذلك للبارودى ، حتى تُهْدى إلى العرب فى عصرهم الحديث شاعراً فَذًّا يُذْكى جذوة الشعر العربى بعد خمودها على نحو ما أذكاها بشار بن بُرْد الفارسى وأضرابه فى العصر العباسى .

على أن ربَّة الشعر حين كانت تدفعه إلى هذا الاتصال بالآداب الفارسية والتركية إنما كانت تدفعه بمقدار ، إذ سرعان ما كانت تردُّه إلى شعراء العرب القدماء وإلى دواوينهم المخطوطة التى كانت مبثوثة على رفوف المكتبات فى الآستانة ، فكان ينقطع إليها إنقطاعاً من حين إلى حين ، يستظهر روائعها مستعينًا بذاكرة قوية كانت كأنها آلة من آلات التصوير ، فهى لا تلم بشىء إلا وتلتقطه وتسجله ، وما يزال عالقًا بها لا يبرحها مهما طال عليه الزمن . ولم يكتف بما كانت تستظهره ذاكرته من هذه الدواوين ، فقد ملأ حقائبه بتحفها النفيسة ، يعاونه طائفة من النسّاخ . وظل كلفاً بهذه النزعة من جمع الدواوين المخطوطة ، يجمعها من كل مكان ، حتى تكوَّنت له منها مكتبة ضخمة .

والحق أن مقام البارودى بالآستانة كان نعمة على شاعريته الخصبة ، فقد زادها خصبًا على خصب ، بما استوعبته من الآداب الفارسية والتركية والآداب العربية نفسها ، وسرعان ما نضجت . وحنَّ البارودى إلى وطنه وعبيره الذى يُحْيى النفوس والقلوب ، وبينما هو يفكر فى عودته إليه قدم إسماعيل إلى الآستانة سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م . ليرفع إلى السلطان العثمانى فروض الشكر على تنصيبه والياً على مصر ، وانتهز البارودى الفرصة المواتية فالتحق بحاشيته وعاد معه إلى وطنه الحبيب .

وبذلك يختم البارودى هذه الدورة الأولى من حياته ، وقد أكملت ربَّة الشعر

مترْباه، وأعانته بما لم تعن به سواه من معاصريه ، لا بما ثقّفته به فحسب ، بل أيضًا بموهبته الشعرية وبصره الدقيق بمواضع الكلم وحسه الثاقب بروائعه حساً جعله يشبه أدق الشبه نحلة فى حديقة ترشف من أزهارها الأرجة . وسرعان ما أخذ يحيل ما يرشفه من دواوين الشعر العربى رحيقًا حلواً صافياً ، رحيقاً يحتفظ بنفس الطعم ونفس اللون اللذين نعرفهما لفرائد شعرنا القديم . ومن خير ما يمثل ذلك فى مطالع حياته قصيدته :

سِواىَ بتَحنانِ الأغاريد يَطْـرَبُ وغيرىَ باللذات يلهو ويُعْجَبُ

فإنه استعار إطارها من الشريف الرضى فى قصيدته :

لغير العُلا منى القِلى والتجنُّب ولولا العلا ماكنت فى الحب أرغَب

وهى استعارة تقف عند الإطار من الوزن والقافية والصياغة الجزلة المصقولة ، أما ما وراء ذلك فللبارودى ولأحاسيسه التى يتلقى منها الفَيْض ، وهى أحاسيس كانت تفيض كما أسلفنا بحماسة وفتوة متوقدة. وقد أخذت تهزه هزًّا عنيفًا كى يتحدث عن مَضائه وبعد عزمه وعلو همته وكرم شيمه واندفاعه فى طلب المعالى ونفوذه من ظلم المشكلات برأيه المضىء السديد . ومضى يتحدث عن اقتحامه لميادين الحروب وبلائه فيها البلاء الحسن . وانتقل يصف خروجه مع بعض رفاقه للقنص متحدثًا عن أدواته من الخيل والكلاب والبُزاة وعن مغانمهم فيه وكيف وصلوه بفنون من اللهو وبكئوس الخمر ودنانه . ويفرغ إلى نفسه مفكراً فى الدهر وتقلباته وفى الأقدار وأحكامها التى تجرى فى الناس . وإذا أضفنا إلى ذلك بعض أشعاره المبكرة فى الحب عرفنا الأوتار التى شدّتها رَبّةُ الشعر إلى قيثارته فى مستهل حياته الفنية ، والتى مضى يوقع عليها ألحانه وأنغامه .

٢

بين السيف والقيثارة

عادت ربّة الشعر بالبارودى إلى مصر ، وهو فى ريعان الشباب ، وقد مضت تسلك به السبيل التى شُغف بها منذ أن كان صبيًّا : سبيل الجيش والحرب ، ولم يلبث أن رُقّى إلى رتبة بكباشى (مقدم) وعُيّن قائداً لفرقتين من فرق الفرسان . وخفق قلبه طربًا ، إذ أصبح فارسًا ، بل كبير فرسان ، وهم رهن إشارته ، وهو يغدو ويروح ، وفرسه يصهل من تحته ويلوّح بعُرْفه . وسرعان ما أُوفد إلى فرنسا مع فرقة من الضبّاط ليشاهدوا الاستعراض السنوى للجيش الفرنسى ، وعبر « المانش » مع رفاقه إلى إنجلترا ليشاهدوا بها بعض الأعمال العسكرية والآلات الحربية . وهو فى أثناء ذلك يردّد بصره فى المناظر الطبيعية المبثوثة فى البلدتين ، كما يردده فى صور الحضارة الغربية . ورجع لتملأ مصر نفسه بهجة ، إذ رُقّى فى سلاح الفرسان سريعًا إلى رتبة قائمقام (عقيد) ثم إلى رتبة أميرالاى (عميد) مع قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص .

وعلى هذا النحو كان يمسك بإحدى يديه فى هذه الدورة الثانية من حياته قيثارته ويمسك باليد الأخرى سيفه ، مما جعل شاعريته تنبعث فى صدره بعثًا قويًّا ، بعثًا أضرم جذوة الحماسة والحب واللهو فى نفسه إضرامًا ، فإذا هى تشتعل اشتعالا وإذا هو يرسل أناشيد حماسية ملتهبة ، ترمى بالشرر ، شرر فروسيته التى كانت مكتنّة فى طوايا نفسه ، ومختزنة فى حنايا مخيلته ، قد سُدّت من دونها الشعاب والطرق ، ومع ذلك تنساب ، ولكن فى تعثّر وبطء بطىء ، أما اليوم فقد تفجرت ينابيعها تفجراً ، وانفتحت أمامها كل الطرق والشعاب ، وسيولها ما تنى تتدافع تدافعًا قويًّا ، محطمة كل ما تلقاه من سدود .

وبَوْنٌ بعيد بين أن يستشعر الشخص معانى الفروسية عن طريق التصور والخيال وبين أن يستشعرها عن طريق الحقيقة والواقع ، والبارودى منذ نشأته فارس ، ولكن ظروفًا كانت تغل فروسيته ، بل كانت تجعلها ضربًا من الوهم ، غير أنه

لم ينكص على عقبيه ، فقد ظل مخلصًا لفروسيته حتى انجابت عنها الأغلال والقيود ، وأسعفته المنى بكل ما كان يريد ، فقد فُتحت أمامه أبواب الأمل فى مستقبل باهر ، كى يحقق ما يريد من أمجاد حربية وغير حربية ، وتهيأ له غير قليل من الثراء عن طريق ما ورثه عن آبائه وما رفده به راتبه فى الجيش ، مما مهّد له حياة ناعمة راضية .

ومعنى ذلك أن فروسية البارودى لم يكن يخفُّها شىء من شظف العيش أو التقتير فى الرزق ، وإنما كان يحفها الثراء والجاه والآمال العريضة ، كما كان يحفها — على نحو ما أسلفنا — إحساس عميق بأمجاد الآباء ، وتضافرت أسباب مختلفة من عروبة أمته وأسرته وتثقفه بالشعر الحماسى القديم على أن تكون حماسة عربية خالصة . والبارودى من هذه الناحية يُعَدُّ مثلا رفيعًا للفارس العربى ، بل لكأنما وُجد ليجسِّد تجسيداً فروسية العرب على مر الزمن من العصر الجاهلى إلى عصر حروب الصليبيين والتتار ، فقد أشربت روحه نحو عشرة قرون من فروسيتهم ، وتمثلتها عن طريق ما وعت من الشعر العربى الحماسى تمثلا منقطع القرين .

لم تتمثل معارك الحرب وصليل السيوف والرماح وصُوَر الطعان والنزال فحسب ، بل تمثلت فى قوة شِيَم فرسان العرب النبيلة التى طالما تغنَّوا بها من مثل الأنفة والإباء والنجدة والوفاء والشجاعة والمَضاء والكرم والحلم والعفو عند المقدرة وبعد الهمة وتوثُّب العزيمة والترفع عن الدنايا والطموح إلى الكمال . ولا يتمثل البارودى خلال الفارس العربى الكريمة فحسب ، بل إنه يتمثَّل شخصيته من جميع أقطارها ، يتمثل فتوته وجراءته وإقدامه حتى لا يخشى إنسانًا ولا حيوانًا ولا فيافىَ صحراء مهلكة ، ومن ثَمَّ تمسَّك بصورة الصحراء فى شعره الحماسى لأنها رمز اقتحام كل المهالك والمخاوف دون اكتراث أو مبالاة .

ومن تمام شخصية الفارس العربى فى عصوره القديمة أن يحمل بين جنبيه قلبًا عاشقًا وفى يده دناً مسكراً ، وأن يتسامى فى عشقه وخمره بحكم سمو نفسه ، فلا يتدنَّى فيهما ، بل يظل محتفظًا بشيمه النبيلة ، وكلنا يعرف أخبار عنترة الفارس الجاهلى وكيف انتهى حبه لابنة عمه : عبلة إلى ضرب من الحب العذرى الطاهر الذى يعتصر قلب صاحبه اعتصارًا . وكان يحتسى الخمر فلا تفقده مروءته ، بل

تزيدها اشتعالا واضطراماً . وظلت صورة عنترة حية فى نفوس فرسان العرب حتى لقيهم الصليبيون ونصارى الأندلس وصقلية ، فراعتهم روعة شديدة جعلتهم ينقلونها إلى بلادهم فى الغرب ، ويستلهمونها فروسيتهم فى عصورهم الوسيطة .

وكان البارودى — كما قدمنا — يتمثل هذه الصورة منذ صدر صباه ، غير أنها لم تتكامل فى نفسه بجلالها وعمق مشاعرها إلا منذ أصبح فارساً شاكى السلاح ، فقد مضى يعيش لها ويعيش بها ، وكأنما اصطفته رَبَّةُ الشعر لكى تنبعث فيه بجميع خطوطها وألوانها النفسية ، بل لكى تحفرها فى أذهان معاصريه حفراً . وتقدمت فهيأت له من الثراء ونعيم الحياة ما جعله يفرغ لشعره بين حين وحين ، كما يفرغ أيضًا بين حين وحين للحب والخمر ، وأيضًا فقد أتاحت له جواً طليقًا ، لكى ينعم بالحرية ، ولكى يعبَّ من صفو الحياة . وسرعان ما انطلقت به إلى حدائق جزيرة الروضة النضرة الممتدة فى النيل أمام القاهرة لتكتحل عيناه بجمال الطبيعة المشرق وجمال المرأة المضىء وليرخى لنفسه العنان فى احتساء الخمر مع رفاقه محيلين بعض الليالى إلى أوقات أنس بهيجة .

وشعره فى هذه الفترة التى امتدت من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٦٥ موزع بين الفخر بشيمه الرفيعة وأصله النبيل وبين التغنى بجمال الرياض ونشوة المُدام ولوعة الغرام ، وهى لوعة صادقة ، فقد هام حُباً بفتاة يرمز لها تارة باسم ليلى وتارة ثانية باسم لمياء وتارة ثالثة باسم ظبية المقياس ، وفيها يقول :

يا ظبيةَ المِقياس ! هذا مدمعى ... فرِدِى، وهذا روضُ قلبى فارْتَعى[1]
إن كان لا يرضيك إلا شِقْوتى ... فلقد بَلَغْت مُناكِ منها فاقْنَعِى
أنا منك بين صَبَابةٍ لا تَنْقضى ... أيَّامُهـا وغوايةٍ لم تُقْلِعِ
لا تحسبى قولى خديعـةَ ماكرٍ ... إن الوفىَّ بعهده لم يَخْدَعِ
إنى لأَقنـع من هواكِ بنظْرَةٍ ... وأعدُّها صلةً إذا لم تَمْنَعى
هذى مناى وحبَّذا لو نلتُها ... عن طيب نَفْس فَهْىَ أكبرُ مُقْنع

---

(١) ردى : من ورود الماء . ارتعى : انعمى .

وهو يبتهل إلى صاحبته أن تنيله نظرة وعيناه ترسلان سيلا من الدموع وقلبه يلتاع ويتعذب عذاب قلوب فرسان العرب السابقين الذين اكتووا بنيران الحب العذرى العفيف .

ولكن أما آن لفروسيته المحتدمة فى أطواء نفسه أن تبرز فى ميادين الحروب ؟ لقد أطلت سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وأخذت تسرع الخُطَى ، وإذا رَبَّةُ الشعر تقذف به فى أتون الثورة التى هبت فى جزيرة كريت ضد الدولة العثمانية ، وكانت قد أرسلت جيشًا لإخمادها واستنجدت بمصر ، فأنجدتها بكتيبة ، كان البارودى أحد ضباطها العظام . وما لمستها قدمه حتى هفا به الحنين إلى مصر ، فنظم قصيدته :

سرى البَرْقُ مصريًّا فأَرَّقنى وحدى وأذكرنى ما لستُ أنساهُ من عَهْدِ

ومضى يتغنى بجزيرة الروضة إحدى معاهد حبه ومَنْ بها من فاتنات لُبّه ، وقد برّح به الشوق تبريحًا شديداً . وتلك أول مرة يتَنَبْجسُ فيها حنينه إلى وطنه ، وكأنما أرادت رَبَّةُ الشعر أن تبعده عنه ، حتى تتوالد فى نفسه مشاعره الوطنية ، وحتى يتفجر ينبوعها فى قلبه فلا يجفّ أبداً . ونظر من حواليه ، فرأى طبيعة « كريت » الجميلة ، فتغنّى بغياضها ورياضها ومجالى فُتونها . ولم يلبث أن أسهم فى وقائع الحرب وزحوف كتائبها ، وهو يتَقْدُمُ فرسانها مجلياً ومتغنيًا بفروسيته وفروسية رفاقه ، وعينه ترنو إلى مشاهد الطبيعة الجميلة ، وقلبه يهفو إلى مصر وطنه الحبيب ، وهو شاهر سيفه يشجّع الفرسان على النزال والطعان رابطَ الجأش ثابت الجنان . وتنشب ذات ليلة معركة عنيفة تدور فيها على أهل « كريت » الدوائر ، فيتغنّى نشوة وطربا بالنصر :

أَخذَ الكَرَى بمعاقد الأَجْفانِ وهفَا السُّرى بأعنَّــة الفُرْسانِ[1]
واللَّيْلُ منشورُ الذوائب ضاربٌ فوق المَتالعِ والربَى بِجرانِ[2]

---

(١) الكرى : النوم . هفا : أسرع . السرى : السير ليلا .

(٢) الذوائب : جمع ذؤابة وهى الشعر فى مقدم الرأس . المتالع : التلال . الجران : أصله من البعير مقدم عنقه ، وضارب بجرانه : كناية عن تسلطه وسيطرته .

لا تستبين العَيْنُ فى ظَلْمائهِ إلا اشتعالَ أسنَّةِ المُرَّانِ[١]
تَسْرى به ما بين لُجَّة فتنـــة تسمو غواربها على الطوفان[٢]
ملئوا الفضاءَ فما يبين لناظرٍ غيرُ التَّماع البِيض والخُرْصان[٣]
فالبَرُّ أكدرُ والسماءُ مريضةٌ والبحر أَشْكَلُ والرماح دوانى[٤]
والخيل واقفـــةٌ على أرْسَانها لطِراد يوم كريهةٍ ورِهان[٥]
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بأَلْسُنِ النيران[٦]
حتّى إذا ما الصبحُ أَسْفَرَ وارتمتْ عيناىَ بين رُبًى وبين مجان[٧]
فإذا الجبال أَسنَّةٌ وإذا الوها د أعنَّةٌ والماءُ أحمر قانى[٨]
وتوجَّسَتْ فُرُطُ الركاب ولم تكن لتهابَ فامتنعتْ على الأَرْسان[٩]
فزعتْ فرجَّعَتِ الحنين وإنمـــا تَحْنانُهـــا شَجَنٌ من الأشجان
ذكرتْ مواردها بمصر وأين مِنْ ماءٍ بمصر منازلُ الرومـــان

والقصيدة من آياته الرائعة بما بدأها به من لمسات النوم وهو يمدُّ شباكه على أعين القوم ، والليل وهو يمدُّ جناحه عليهم وعلى الطبيعة من حولهم . وقد مضى يصور فى حيوية زاخرة المعركة التى نشبت وكيف كانت الأسنة تلمع كالنجوم بل كالنيران فى الظلمة المطبقة ، وكأنما تخلّى موكب الليل الداجى لمواكب الجيش

---

(١) المران : شجر غصونه لدنة ، تتخذ منه الرماح .
(٢) الغوارب : جمع غارب وهو أعلى كل شىء .
(٣) البيض : السيوف . الخرصان : الدروع والرماح .
(٤) أكدر : مغبر لما تثيره الحرب من غبار . أشكل : يضرب لونه إلى الحمرة .
(٥) الأرسان : جمع رسن وهو اللجام . الطراد : المطاردة والمتابعة فى الحرب . يوم الرهان : يوم السبق ويريد يوم النصر .
(٦) يريد بألسن النيران ما تقذفه المدافع والبنادق .
(٧) أسفر : ظهر . المجانى : جمع مجنى وهو موضع جنى الثمار .
(٨) يريد بالأعنة الخيل . قانى : شديد الحمرة .
(٩) توجست : توقعت الشر . الفرط : الفرس السريعة فى مقدمة الخيل . امتنعت على الأرسان : حرنت وأبت الانقياد .

وشُعَله من السيوف والخُوَذ والدروع . وانعقد النَّقْع وسالت الدماء ، وظل السلاح ينوشُ القوم إلى الصباح . ويتلفت البارودى فيشهد روعة الطبيعة من حوله ، ويهوله اكتظاظ الجبال بالأسنة والوهاد بالأعنة واصطباغ المياه بحمرة قانية ، وينظر إلى الخيل ، فيراها تتميَّز من الغيظ ، ممتنعة على اللجُمِ حدَّةً ونشاطًا ، وصاهلة صهيلا يشوبه أنين بل يشوبه ما يشوب نفس البارودى من الحنين إلى مصر حنينا لا يزال يرجِّعه ساكبا الشجى والشجن فى فؤاده .

وظلت الحرب سجالا حتى قُمعت الثورة ، فعاد البارودى إلى مصر ، ومنحته الدولة العثمانية وسامًا من الدرجة الرابعة اعترافًا بحسن بلائه فى قَمْعها . ولا يُعْرَفُ بالضبط تاريخ عودته ، غير أننا نظن ظنًّا أنه يسبق المؤتمر الذى انعقد بباريس فى سنة ١٨٦٩ وقضى بمنح جزيرة كريت بعض الامتيازات . ولم يرجع بعد عودته إلى الجيش ، فقد عينه إسماعيل ياوراً بمعيته ، ثم جعله كبيراً لياوران ابنه توفيق ، وما زال يشغل هذا المنصب حتى عاد إسماعيل حوالى سنة ١٨٧٥ فجعله سكرتيراً خاصًّا له ، وناط به فى هذه الأثناء حمل رسالتين إلى الدولة العثمانية ، ونراه يعود إلى الجيش ثانية ، حتى سنة ١٨٧٧ .

ومن المحقق أنه ظل فى هذه الفترة التى كان يعمل فيها بالقصر محتفظًا بكرامته . ولهذا مظهر واضح فى شعره ، فإنه لم يضعه فى خدمة إسماعيل يمدحه — مثل معاصريه من الشعراء — كلما دَعَا إلى ذلك داع من ذكرى لارتقائه أريكة مصر أو تهنئة بعيد أو غير ذلك من دواعٍ . وكل ما صنعه فى هذا الجانب قصيدتان ، هنَّأه فى أولاهما بولاية مصر حين تعرَّف عليه فى الآستانة سنة ١٨٦٣ وكان لا يزال موظفًا بوزارة الخارجية التركية . وعاد إلى مدحه بقصيدة ميمية ، ثم لزم الصمت . ومرجع ذلك من غير شك نفسيته القوية التى ردته عن أن يتخذ الشعر وسيلة وزُلْفَى للحاكم ، ولعله كان يشعر فى قرارة نفسه أن شرف أصله وموهبته الشعرية يفوقان إمارة إسماعيل .

على كل حال لم يتحول البارودى طوال عصر إسماعيل إلى شاعر من شعراء البلاط ، وقد ظل فى أثناء عمله بالقصر يتغنى على قيثارته بالفخر والحب والخمر ، شأنه قبل اشتراكه فى إخماد ثورة كريت . وحين ننعم النظر فى هذا الغناء نحسّ

بضرب من التغير فى طبيعته ، وكأن أزمة ألمت بنفس الشاعر ، وهو يعلن بدء هذه الأزمة إعلاناً صريحاً ، قائلا إنها انتابته وهو فى التاسعة والعشرين من عمره أى فى سنة ١٨٦٨ وكأنما حاول أن يستر عنا بواعثها الحقيقية، إذ ردّها إلى ظهور الشيب واشتعاله فى رأسه ، يقول :

نزعتُ عن الصِّبا وعصيت نفسى ودافعتُ الغَـوايةَ بالتأَسِّى[١]
ومن يك جاوز العشرين تَتْرَى وأردفهـا بـأَربعةٍ وخَمْسِ[٢]
فقد سَفَرتْ لعينيـه الليـالى وبانَ له الهُدى من بَعْدَ لَبْسِ[٣]
نظرتُ إلى المِراة فكشَّفَتْ لى قِناعاً لاح فيه قَتيرُ رأسى[٤]

ولكن أحقا أقلع عن الصبابة واللهو والخمر ؟ إن ديوانه يكتظ بأشعار نظمها فى تلك الفترة تكتظ بهذه الموضوعات وما اتصل بها قديماً من الفخر ووصف الطبيعة . وإذن فلنبحث عن علة أخرى لما أخذ يلمّ بنفسه من ضيق ، وإذا رجعنا إلى الديوان وجدناه يقيم حينئذ بحلوان مدة لملازمة الحمامات ، فهل ما اعتراه من هذا الضيق يُرَدّ إلى مرض كسا نفسه بشىء من الظلمة ؟ إن الديوان يتلو هذا الخبر بقصيدة مفعمة بالحب والحماسة نظمها فى إحدى فاتنات حلوان اللائى تَصبَّيْنَ قلبه . فتلك العلة إذن لا تفسر الموقف ، وفى رأينا أن ذلك الضيق يرجع إلى إحساسه العميق بفساد حاشية إسماعيل وفساد إسماعيل نفسه وما أخذ يُثْقِل به ظهر البلاد من أعباء الديون . وآية ذلك الرأى ، الذى نزعمه ، ما يمتلئ به شعره حينئذ من شكوى ممضة ، يتبرم فيها بالناس وأخلاقهم ، وما يسارعون إليه من الشر البشع وما يضمرون من الخبث والمكر ومن الخيانة والغدر ، وهو يطيل فى هذه المعانى إطالة لا نعهدها عنده قبل هذه الفترة من حياته ، من مثل قوله هاجياً :

وصاحبٍ كهُموم النفس معترضٍ ما بين تَرْقُوَةٍ منى وأحشاء

---

(١) التأسى : التعزى والتسلى . (٢) تترى : متواترة . أردفها : أتبعها .
(٣) سفرت : ظهرت . لبس : غموض .
(٤) المراة : المرآة ، خففها للشعر . القناع : غطاء الرأس ، وأراد به الشعر . القتير : أوائل الشيب .

لا يفعل السوءَ إلا بعد مقــدرةٍ ولا يُكفكفُ إلا بعد إيذاء
عاشرته حِقْبَةً من غير سابقةٍ فكان أَقْتَلَ من داءٍ لِحَوْباء
لا بارك الله فيه حيث كان ، ولا جــزاه عن فعله إلا بأَسْواء

ويتسرب كثير من سواد هذه الشكوى ممن يحيطون به إلى غرامياته وخمرياته . ومن غير شك كان كثير منهم يَنْفس عليه ارتفاع نجمه ، ولكن ذلك لم يكن العلة الحقيقية التى أشاعت فى نفسه رَنَّةً من البرم والضيق الشديد ، فإن كل ذلك إنما كان ذَنَبَ الحيَّة وحواشيها التى ينبغى أن لا تُقْطَع هى فحسب ، بل ينبغى أن تقطع رأسها حتى لا تقوم لها قائمة . ولم تكن الرأس إلا إسماعيل الذى فسح لهذه الحاشية الفاسدة ، وإذن فإسماعيل هو العلة الحقيقية لأزمته النفسية ، إذ مضى يستدين من الأوربيين ، حتى بلغت ديونه فى سنة ١٨٦٨ نحو خمسة وعشرين مِليوناً من الجنيهات ، وحتى بدا فى الأفق أن كارثة فظيعة لابد أن تحيق بالبلاد ، إذا استمر ينفق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة على قصوره وملاذه . ومعنى ذلك أن أزمته النفسية لم تكن ترجع إلى أسباب شخصية ، إنما كانت ترجع إلى أسباب قومية ، وإلى وطنه الذى استشعر فى قوة حبه منذ مقامه فى كريت ، فمضى يتغنَّى به . وعاد فوجده على حافة خطر تكاد تُودى به ، وحاشية إسماعيل من حوله وعلى رأسها وزيره إسماعيل صديق تسوِّل له أن يمضى فى استنزاف أموال الشعب ، مُنْزِلة به ما لا يُطاق من العسف والظلم . حينئذ تثور نفس البارودى ثورة عارمة سجَّلها فى قصيدته العينية التى يستهلها بقوله :

متى أنت عن أحْمُوقة الغَيِّ نازعُ وفى الشيب للنفس الأبِيَّة وازِعُ
ألا إن فى تِسْعٍ وعشرين حِجَّــةً لكلِّ أخى لهوٍ عن اللَّهْو رَادِع[1]
فحتَّام تُصْبِيك الغوانى بِدَلِّهــا وتهفو بِلِيتَيْكَ الحمامُ السَّواجع[2]

ويمضى البارودى فيستنهض همة قومه ليقضوا قضاء مبرمًا على إسماعيل وحكمه الفاسد ، ويأسى أن يجد فى وطنه نفوسًا ضعيفة ترضى الذل والهوان ولا تثور على

---

(١) حجة : سنة .
(٢) تصبيك : تفتنك . تهفو : تميل وتحرك . الليتان : صفحتا العنق .

البغى والعدوان ، قد ألهاها عن واجبها الوطنى ما يرمى إليها به الحاكم المستبد من ألقاب ورتب لا تزين بل تشين ، لأنهم باعوا بها وطنهم وحقوقه ، صفقة خاسرة بائرة . وما يلبث أن يهيب بقومه أن يضرموها ثورة لا تُبْقى ولا تَذَر ، ثورة تأتى على إسماعيل وكل من دار فى مداره ، وإنه ليصيح :

فيا قومُ هُبُّوا إنما العمر فرصةٌ   وفى الدَّهر طُرْقٌ جَمَّةٌ ومنافعُ
أَصَبْرًا على مَسِّ الهوان وأنتمُ   عَديدُ الحصى ؟ إنى إلى الله راجع
وكيف ترون الذلَّ دارَ إقامــةٍ   وذلك فَضْلُ الله فى الأَرض واسع
أرى أَرْؤُساً قد أَينعتْ لحصَادِها   فأَين ـ ولا أين ـ السيوفُ القَواطعُ[١]

والأبيات تفيض بالاستثارة حتى تندلع هذه الثورة التى تُطيح برأس إسماعيل ورءوس أصحابه من أمثال إسماعيل صديق . غير أن البارودى يتلفت حوله فلا يجد سميعًا ولا مجيبًا :

أَهَبْتُ ، فعاد الصَّوْتُ لم يقض حاجةً   إلىّ ولبَّانى الصَّدَى وهْو طائع[٢]

فهو قد صاح فى قومه صيحة قوية عاصفة ، وكأنما كانت صيحةً فى واد . وهذا هو سر أزمته النفسية ، فقد ظل إسماعيل جاثمًا على صدر مصر ، وظل يستدين ويستزيد من أغلال الدين الأجنبى ، والبارودى يقلق ويزداد قلقًا على مصير بلاده . ونزلها السيدْ جمال الدين الأفغانى فى سنة ١٨٧١ وحمل على إسماعيل وسياسته الخرقاء حملات شعواء ، ولاذ به كثيرون كان البارودى فى مقدمتهم . وطربت رَبَّةُ الشعر لما كان يحس من مشاعر قومه ، ولما أخذ يتعمقه من السخط على حكامهم المستبدين ولما انتابه من الحزن لوطنه . ويظهر أن اليأس من القضاء على إسماعيل وبطانته الفاسدة بلغ منه فى هذه الفترة مبلغًا عظيما، ومن ثَمَّ نراه حنقا على الدهر والناس ، ضيقًا بأذناب القصر ووشاياتهم وسعاياتهم ، وجعله ذلك

---

(١) أرؤسا : جمع رأس . أينعت : نضجت وحان حصادها وقطافها . لا أين : كلمة معترضة يدل بها على أساه فى أن ذلك لا يقع .

(٢) أهبت : ناديت وصحت . لبانى : أجابنى . الصدى : صدى الصوت .

حذرا ، يكثر من مداراتهم ، حتى لا يطير به إسماعيل طيرة بطيئًا سقوطها ، يقول :

مداراةُ الرجالِ أخفُّ وَطْئـاً على الإنسان من حَرْب الفسادِ
وما كان العِداء يخفُّ لولا أذى السلطان أو خوفُ المعاد

ويقول :

اكتُمْ ضميرك من عدوك جاهدا وحذارِ لا تُطْلِعْ عليه رفيقـا
فلربما انقلب الصديقُ معادياً ولربمـا رجع العدو صديقا

وقد مضى يغرق يأسه وقلقه فى وصف الطبيعة والحب والخمر والحماسة متنقلا بين معاهد حبه وهوه القديمة فى الروضة ومعاهده الجديدة فى حلوان والجيزة ، غير أن رنّة جديدة من ذم الناس والشكوى من الزمان انسكبت — كما قدمنا — فى موسيقى شعره ، وامتزجت بغنائه وألحانه . وعن طريقها نستطيع أن نفرق بين كثير مما نظمه فى تلك الفترة وبين نظيره فى الفترة السابقة قبل اشتراكه فى معارك كريت ، فبينما تسرى البهجة فى قصائده ومقطوعاته الأولى وخاصة فى خمرياته إذا بقصائده ومقطوعاته الثانية يشيع فيها غير قليل من الشكوى والكآبة . وعلى هذا القياس نضع فى الفترة الأولى مثل قصيدته :

أدِرِ الكأسَ يا نديمُ وهاتِ واسقنيها على جَبين الغداقِ

وقصيدته التى عارض بها أبا نواس : « تلاهيت إلا ما يُجن ضمير » وقصيدته : « حبذا الرَّاح فى أوان البهار » وقصيدته فى ظبية المقياس : « أترى الحمام ينوح من طرب معى » وقصيدته : « لوى جيده وانصرف » ونظن ظنًّا أن قصيدته : « هل فى الخلاعة والصبا من باس » من قصائد تلك الفترة . ونضع فى الفترة الثانية قصيدته :

غـادِ النَّدَى بالجيزة الفَيْحاءِ واحْدُ الصَّبوح بنغْمة الوَرْقاءِ[1]

---

(١) غاد : باكر . ومغاداة الندى كناية عن التبكير . الفيحاء : الواسعة . احد من الحداء وهو : التغنى للإبل فى سيرها . الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح . الورقاء : الحمامة يشيع السواد فى لونها الأبيض .

وهى تضجُّ بالشكوى من الزمان والحساد وإخوان السوء . وتتصل منها بسبب قصيدته : « سَلوا عن فؤادى قبل شدِّ الركائب » وهى فى فاتنات حلوان ومعروف أنه لم يَصْبُ إليهن قبل هذه الفترة . ويجرى فى مسارب نغمهما قصيدته : « املأ القدح » وقصيدته : « أرى نفحة دلَّت على كبدى الوَجْدا » وقصيدته : التى عارض بها أبا فراس : « طربتُ وعادتنى المَخيلةوالسكر[1] » وقصيدته : « لهوى الكواعب ذمَّة لا تُخْفَرُ » وقصيدته : « رَفَّ الندى وتنفس النَّوار » .ونستطيع أن نضيف إلى هذه الفترةقصيدته : « سل الجيزة الفيحاء عن هرمى مصر» إذ هى الفترة التى شَغَفت مصر فيها قلبه حبا ، فطبيعى أن يتغنَّى حينئذ بأمجادها القديمة ، وهى تُعَدَّ الأم الرءوم لما نظمه شوقى فيما بعد من فرعونياته . ونضع أيضًا فى هذه الفترة قصيدته : « ذهب الصبا وتولت الأيام » وقصيدته : « ظن الظنونفبات غير موسَّدِ » لما ذكره فيها من بلائه فى الحرب ، وكأنه يشير إلى اشتراكه فى وقائع كريت .

وعلى هذا النحو يمكن أن نعين زمن كثير من حماسيات الديوان وخمرياته وغزلياته ومتى نُظمت أقبَلَ سنة ١٨٦٨ أو بعدها ، فقد كانت نفس البارودى قبل هذه السنة أشبه ما تكون بالينبوع الصافى العذب ، فإذا هى تختلط بالقصر ، فيهب عليها غباره ، ويعلو صفحتها كثير من الكدر ، وتغمرها ظلمة مخيفة ويصيح البارودى صيحة عالية مدوية ، يريد أن يقوِّض القصر على صاحبه وأذنابه ، غير أنه لا يجد لصيحته أدنى صدى ، فتأسى نفسه لوطنه ، ويعود إلى لهوه وحبه وحماسته مرسلا كثيراً من الأنات والزفرات .

وعافت نفسه حياة القصر ، فاتخذ من الوسائل ما جعله يُرَدّ إلى الجيش ، غير أن الظلمة لم تنقشع عن نفسه ، إذا أخذت تظهر فى الأفق بوضوح بوادر الكارثة التى أخذ إسماعيل يدفع إليها البلاد ، لا بما أثقل ظهرها من أعباء الديون فحسب ، بل أيضا بما فسح للدول الأجنبية من التدخل السافر فى شئونها ، فإذا هو يرتضى إنشاء صندوق للدين يديره مندوبون أجانب ، كما يرتضى فرض الرقابة الأجنبية على شئون البلاد المالية ، ويتولاها رقيب إنجليزى وآخر فرنسى . وكأنما

---

(١) المخيلة : الظن . السكر هنا : تشتت الفكر وذهول العقل .

أرادت ربّة الشعر أن تمحص الحرب جوهر البارودى بأكثر مما محصته فى كريت ، فما وافى شهر إبريل من سنة ١٨٧٧ حتى أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وتبعتها رومانيا وبلغاريا والصرب والجبل الأسود ، فاستنجدت تركيا بمصر ، وأنجدتها مرسلة إليها بحملة ضخمة كان البارودى أحد قوادها . ونزلت الحملة فى « وارنه » أحد ثغور البحر الأسود ، ومضى جنودها وضباطها يحاربون فى أكرانيا مستميتين ومستبسلين ، وظلوا نحو عام أبلوا فيه بلاء حسنًا ، غير أن الهزيمة حاقت بالترك ، فاضطروا إلى عقد معاهدة سان استفانو المشهورة فى مارس من سنة ١٨٧٨ وكانت قد طارت الأنباء بما أبداه البارودى فى تلك الحرب من شجاعة وبسالة نادرة ، فخلع عليه الترك رتبة أمير اللواء ومنحوه نيشان الشرف ووسامًا من الدرجة الثالثة .

وبينما كان يقتحم البارودى ميادين هذه الحرب ومعاركها الدامية كان ينازعه الشوق إلى مصر التى ارتسمت فى سويداء فؤاده وملك حبها شغاف قلبه . وقد صور ذلك فى قصائد ثلاث ، استهلّ إحداها بذكرياته البهيجة لمعاهد حبه فى « روضة المقياس » أو جزيرة الروضة ، وأفاض فى تصوير مشاعره ، وأنه لولا الحرب لطار إلى وطنه ، وأنه لذلك يكافح خصمين : شوقه وعدوه الذى يقاتله ، يقول :

ولو كنتُ مطلوقَ العِنانِ لما ثنتْ ... هوايَ الفيافى والبحارُ الطوافحُ
ولكننى فى جَحْفَلٍ ليس دونه ... براحٌ لذى عُذْرٍ ولا عنه بارحُ (١)
يكافحنى شوقى إذا الليل جَنَّنى ... وأغدو على جمع العِدا فأكافحُ (٢)
خصمان : هذا بالفؤاد مخيِّمٌ ... وذلك عن مَرْمَى القذيفة نازح (٣)

---

(١) الجحفل : الجيش الضخم . البراح : الفضاء . بارح : زائل .
(٢) جنى : ستر فى .
(٣) مخيم : مقيم . نازح : بعيد .

ومضى يدعو لروضة المقياس دعاء رقيقا مؤثراً ، ثم أخذ يصف الحرب بريشته المبدعة ، وكأنه لا ينظم قصيدة وإنما يرسم لوحة رائعة . ومرّ به عيد فطر هناك ، وهو لا يدرى لما كان فيه من مشاغل القتال ، فلما ذكره له ذاكر جاشت نفسه بقصيدة بديعة استهلها بقوله :

أَرَاكَ الحِمَى شوق إليك شديدُ ... وصبرى ونومى فى هواك شَرِيدُ[1]

واتسع فى وصف حنينه إلى مصر ، وشكا شكوى مرة من الغربة ، حتى إذا استوفى ذلك نقل إلى قصيدته شخوص مَنْ كان يحاربهم بسيماهم وصورهم نقلا دقيقاً. وثالثة القصائد قلادة من قلائد البارودى النفيسة تتحرق فيها أحشاؤه على الوطن وخلانه فيه تحرقاً ، مثبتاً صورة الحرب الروسية التركية ، ومتحدثاً عن شيمه العربية النبيلة ، وفى تضاعيف ذلك يقول :

وبى ظَمَأٌ لم يبلغ الماءُ رِيَّهُ ... وفى النفس أمر ليس يُدْركه الجَهدُ[2]

أودُّ وما ودُّ امرئٍ نافعًا له ... وإن كان ذا عَقْلٍ إذا لم يكن جد[3]

ومن كان ذا نَفْسٍ كنفسى تصدَّعتْ ... لِعزَّتِهِ الدُّنيا وذلَّتْ له الأُسْدُ[4]

والبيت الأول صريح فى أن البارودى يطمح إلى غاية من المجد لا تكاد تنال ، لكنها هى التى تنقع ما فى قلبه من ظمأ وأنه لذلك لا يزال يمنّى نفسه بدركها ، مع ما يحسّ من إسرافه فى الطمع ، غير أن من كانت همته بعيدة مثله امتثلت الدنيا لعزته وعنت له الوجوه ، وحقق كل ما ابتغاه . ونحار فيما ينبغى البارودى ،

---

(١) الأراك : شجر . شريد : نافر .

(٢) الرى : الامتلاء بالماء ، يقول إن ظمأه لا يرويه الماء لأنه ظمأ إلى تحقيق غاية من المجد لا تنال وإن غايته تلك أبعد من سعيه .

(٣) الجد : الحظ .

(٤) تصدعت : دانت وذلت .

غير أننا إذا قرنا هذه الأبيات إلى صرخته فى سنة ١٨٦٨ ضد إسماعيل عرفنا مبتغاه ، وأنه يبتغى ولاية مصر ، حتى يخرجها من دائرة الظلام الذى غمرها ، ويحقق لها مجدها السياسى كما حقق لها بشعره مجدها الأدبى .

٣

على جناح الثورة

عاد البارودى إلى مصر فى أبريل سنة ١٨٧٨ فرُقّى إلى رتبة اللواء وعُيّن مديراً للشرقية ، وسرعان ما نُقل محافظاً للقاهرة ، وفى هذه الأثناء كان إسماعيل يركع على قدميه أمام الإنجليز والفرنسيين ، مذعناً لتدخلهم فى شئون الحكم إذعاناً جعله يؤلف الوزارة المختلطة فى شهر أغسطس من تلك السنة ، بحيث أصبحت وزارة المالية بيد وزير إنجليزى ووزارة الأشغال بيد وزير فرنسى ، أما رياسة الوزارة أو مجلس النظار فأعطيت لنوبار عميل الأجانب وبذلك أصبحت مقاليد الحكم فى البلاد بيد الوزيرين الأوربيين . وتحرك الشعب حركة قوية بقيادة صحافته يريد أن يُلقى عن ظهره أعباء الظلم التى أخذه بها إسماعيل والأجانب جميعاً ، وظهرت حركة فى الجيش بسبب إحالة كثيرين منه إلى المعاش ، فخاف توفيق بن إسماعيل نوبار فى رياسة مجلس النظار . غير أن الوزيرين الأجنبيين ظلا كما هما دون تغيير ، وسوّلا لتوفيق وأبيه أن يلغيا مجلس شورى النواب ، فلم تهدأ النفوس بل ازدادت حدة على قوى الظلم ، وتكونت جمعية وطنية اضطرت إسماعيل إلى وضع نظام دستورى سليم واضطلاع وزارة وطنية بشئون الحكم لا يكون بينها أجنبى دخيل وتكون مسئولة أمام مجلس شورى النواب . وأذعن تحت ضغط الشعب ، ونهض محمد شريف بتأليف وزارة وطنية ، وأخذ يضع قواعد الدستور الجديد .

وعلى هذا النحو أخذ الشعب يثور على إسماعيل الذى يوشك أن يطوّح به فى هوة لا قرار لها ، غير أنه لم يسرع إلى إعلان ثورته عليه بحيث يبطش به وبأعوانه

بطشاً ، ويعصف بهم عصفاً لا تقوم لهم بعده قائمة . ولكن أين البارودى الذى أعدته ربَّة الشعر وظلت تغذيه بمشاعر الفروسية والوطنية ليكون صوت مصر فى هذه المحنة ؟ وهل ينعقد لسانه وأمته يحلّ بها هذا الضيم بل هذا الهوان وهو الشاعر المتوثب الذى يملك عليه وطنه لُبَّه وقلبه والذى يحس فى أعماق نفسه أن مصر استخلصته فى تلك المحنة العصيبة لنفسها كى يردَّ عنها ما أطبق عليها من الأرْزاء والأهوال ، وليحقق ما تصبو إليه من أمجاد تتلاءم وتاريخها العريق ؟ إنه لم يلبث أن ثار ثورة عنيفة ، فإذا هو يصرخ فى أمته صرخة عاتية عاصفة ، يريد أن يحطم كل ما كُبِّلت به من أغلال وقيود ثقيلة ، على نحو ما نقرأ فى قصيدته اللامية :

قلَّدتُ جِيدَ المعالى حِلْيَةَ الغــزَلِ ... وقلتُ فى الجدِّ ما أغنى عن الهَزَلِ

وقد مضى يعلن أنه لن يخضَع منذ اليوم لسحر الأعين النجل ولا للهو والطرب ، فقد وهب نفسه لطلاب المجد يريد أن يحلق فوق قممه الشماء ، وإنه ليستثير مَن حوله ويستنهض هممهم ، لكى يقتحموا معه اللجج كالعواصف الجامحة والأعاصير الهائجة ، ويحذرهم من ذوى النفوس المريضة من حولهم أن يبوحوا لهم بأسرارهم وما عقدوا عليه عزمهم ، ولا يلبث أن يرسل صوته مجلجلا بالثورة ، صائحاً :

حلبتُ أَشْطُرَ هذا الدهرِ تجْــربةً ... وذُقْتُ ما فيه من صابٍ ومن عَسَلِ (١)

فما وجدتُ على الأيام باقيــةً ... أشهى إلى النفس من حرية العمل

لكننا غرضٌ للشرِّ فى زمنٍ ... أهلُ العقول به فى طاعة الخَمَلِ (٢)

قامتْ به من رجال السوء طــائفةٌ ... أدْهى على النفس من بُؤْسٍ على ثَكَلِ (٣)

من كل وَغْدٍ يكاد الدَّسْتُ يَدْفَعُــهُ ... بُغْضاً ويَلْفِظُهُ الديوانُ من مَلَلِ (٤)

---

(١) الأشطر : جمع شطر وهو خلف الناقة ، وحلبت أشطر الدهر : كناية عن اتساع التجربة . الصاب : عصارة شجر مر . (٢) الخمل : جمع خامل وهو الساقط الذى لا نباهة له ولا شرف . (٣) الثكل : فقدان الولد . (٤) الدست : مجلس الحكم وكذلك الديوان .

ذَلَّتْ بهم مِصْر بعد العِزِّ واضطربتْ قواعدُ الملك حتى ظلَّ فى خَلَلِ
وأصبحتْ دوْلَةُ الفسْطاط خاضعةً بعد الإباء وكانتْ زهرةَ الدُّوَل

وهو فى هذه القطعة يصور حكام مصر الذين استذلوها ، وإن كراسيهم التى اقتعدوها لتبرأ منهم ومن دنَس نفوسهم ، بل لكأنما تريد أن تركلهم ركلا ، لما نكبوا به البلاد من التدخل الأجنبى ومن الظلم والفساد . ويحاول بكل ما يستطيع أن يحرك الأمة لكرامتها وحريتها ، يقول :

بِئسَ العَشيرُ وبئستْ مصرُ من بلدٍ أضحتْ مُناخاً لأهل الزُّور والخَطَل (١)
أرضٌ تأثل فيها الظلم وانقذفتْ صواعِقُ الغَدْر بين السهل والجبل (٢)
وأصبح الناسُ فى عمياء مظلمةٍ لم يَخْطُ فيها امرؤٌ إلا على زلَلِ

وهو لا يهجو مصر وكيف يهجوها وهى قرة عينه ؟ إنما يريد أن يصوِّر ما أصابها فى كبريائها وعزتها وفى حكمها وسياستها ، إذ تسلط عليها حكام مستبدون ، ما زالوا يَنْحون عليها بالظلم ، حتى غشيها الظلام من كل جانب ، وحتى أصبح الناس يائسين من أن يخرجوا من هذه الظلمة الغامرة . والبارودى إنما يبتغى بهذا التصوير أن يدفع الشعب إلى قهر ظالميه والاقتصاص منهم ، وقد مضى يهزُّه هزًّا قويًّا ، قائلا :

لم أدرِ ماحلَّ بالأبطال من خَوَرٍ بعد المِراسِ وبالأسياف من فَلَل (٣)
أصوَّحتْ شجراتُ المجد أم نضبتْ غُدْرُ الحميَّة حتى ليس من رَجُل (٤)
لا يدفعون يدًا عنهم ولو بلغتْ مسَّ العَفافة من جبْنٍ ومن خَزَل (٥)

---

(١) الخطل : الحمق والمنطق الفاسد .
(٢) تأثل : تأصل .
(٣) الخور : الجبن . الفلل : انثلام حد السيف .
(٤) صوحت : يبست . غدر : جمع غدير .
(٥) خزل : انخزال .

خافوا المنيةَ فاحتالوا وما علموا ... أن المنيـــة لا ترتدُّ بالحِيَل
هيهاتَ يلقى الفتى أمْنًا يَلَذُّ بهِ ... ما لم يخُضْ نحوه بَحْرًا من الوَهَل[1]
فما لكم لا تعاف الضَّيْمَ أنفُسكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل[2]
وتلك مصر التى أفْنَى الجِلادُ بها ... لفيفَ أسلافكم فى الأعصر الأُوَل
قومٌ أقرُّوا عماد الحقِّ وامتلكوا ... أزمَّـــة الخلق من حافٍ ومُنْتَعل
أخْنَى الزمانُ على فُرْسانها فغدتْ ... من بعد مَنْعَتِها مطروقةَ السُّبُلِ[3]

والبارودى إنما يقصد بهذه الأبيات أن يحمّس الشعب ويشعل فيه لهيب كرامته، حتى يضطرم غضبه على ظالميه، وهو يضع له نصب بصره بطولاته القديمة وماساس به الشعوب من سياسة عادلة يوم أن كان يظلّها بسلطانه، حتى يهيج لحقوقه المهدرة، ويحطم سلاسل الظلم التى أحكمت حلقاتها من حوله. ومم يخاف الشعب وأفراده؟ أيخافون الموت، واقتحامُ ميادينه هو السبيلُ الصحيح للحياة الحرة الكريمة. وما بلغ البارودى هذا الموضع من قصيدته حتى طفح به الكيل، وحتى هتف بالشعب طالبا إليه أن يثور بقيادته ثورة تردّ إليه حقوقه المسلوبة:

فبادروا الأمرَ قبل الفَوْت وانتزِعوا ... شِكالةَ الرَّيْثِ فالدنيا مع العَجلِ[4]
وقلِّدوا أمركم شهماً أخا ثقـــةٍ ... يكون رِدْءًا لكم فى الحادث الجَلل[5]
ماضى البصيرة غلاَّبٌ إذا اشتبهتْ ... مسالكُ الرأى صاد الباز بالحَجَل[6]
إن قال بَرَّ وإن ناداه منتصرٌ ... لبَّى وإن همَّ لم يرجعْ بلا نَفَل[7]

---

(١) الوهل: الفزع.
(٢) الضيم: الظلم. الغواشى: ما يغشى الإنسان ويتابه.
(٣) أخنى على: أهلك.
(٤) الشكالة: عقال الدابة الذى تعقل به وتقيد. الريث: الابطاء.
(٥) ردءا: عونا. الجلل: الخطير والعظيم.
(٦) الباز: الصقر. الحجل: بغاث الطير وضعافها.
(٧) النفل: الغنيمة.

وطالبوا بحقوقٍ أصبحتْ غَرضاً ... لكل منتزِعٍ سَهْماً ومُخْتَتِلِ[١]
حتّى تعود سماءُ الأمن ضاحيةً ... ويرْفُلَ العدلُ فى ضافٍ من الحُلَلِ[٢]

ولم يلبِّ الشعب حينئذ البارودى ولا بادر إلى قهر ظالميه بالعنف ، بل مضى يأخذهم باللين رغم ما يحفّ به من المكاره ويحدق به من الأخطار . ولم ييأس البارودى من ثورة الشعب ، غير أنه رأى أن يصانع أصحاب السلطان ، حتّى تحين الفرصة ، وحتّى لا تسوء العاقبة . وكان فيه حذر شديد ، يدل عليه أبلغ الدلالة أنه ظل بعد صرخته الأولى نحو عشر سنوات لا يرفع صوته ، وجمع عزيمته وصرخ هذه الصرخة الثانية ،حتّى إذا لم يجد لها صدى فى نفوس مَنْ حوله مضى يتحفظ ويحتاط حتّى لا تنكشف طويّته . وبينما كان محمد شريف رئيس مجلس النظار يحاول أن يضع للبلاد دستوراً قويمًا يرد عليها كرامتها وحقوقها المهضومة فارضًا على الوزارة مسئوليتها عن كل تصرف مهما دقّ أمام مجلس شورى النواب إذا بالحكومتين الإنجليزية والفرنسية تكيدان لإسماعيل عند الدولة العثمانية ، لإقصائه الوزيرين الأجنبيين عن الوزارة وإسناده رياستها لمحمد شريف الوطنى الغيور ، وما زالتا تحثّان العثمانيين على خلعه عن ولاية مصر ، حتّى خلعوه فى يونية سنة ١٨٧٩ وولوا مكانه ابنه توفيقا ، فقدم له محمد شريف استقالته حسب التقاليد المتبعة ، وعهد إليه من جديد بتشكيل الوزارة فأدخل فيها معه محمود سامى البارودى ناظراً (وزيراً) للمعارف والأوقاف . ونرى البارودى يحيِّى توفيقا بولايته على مصر ، وهى فى الظاهر تحية وتهنئة ، وفى الحقيقة دعوة صريحة لتوفيق كى يصدر الدستور الذى أعده محمد شريف ويدعو للانعقاد مجلس شورى النواب ، ويُسْقط عن ظهر الشعب أعباء الظلم وأوزاره ، وصاغ ذلك صياغة تدل على أنه أصبح أمراً مقضيًّا لا مفر منه يقول :

سَنَّ المشورةَ وهْيَ أكرم خُطَّة ... يَجْرى عليها كلُّ راعٍ مرشدِ[٣]

---

(١) منتزع السهم : الرامى به . المختتل : الذى يصيب ما يريد بالمكر .
(٢) ضاحية : مصحية مشرقة . يرفل : يمشى زهوا واختيالا . ضاف : سابغ .
(٣) سن المشورة : جعلها طريقه إلى الحكم ، وهو يريد بها الدستور ومجلس شورى النواب .

هِيَ عِصْمَةُ الدين التى أوحى بها ... ربُّ العباد إلى النبيِّ محمَّدِ[1]
فمن استعانَ بها تأيَّدَ مُلْكُهُ ... ومن استهان بأمرها لم يَرْشُد
أمرانِ ما اجتمعا لقائد أُمَّةٍ ... إلا جنَى بهما ثمار السؤْدُدِ[2]
جمعٌ يكون الأمرُ فيما بينهم ... شُورَى وجُنْدٌ للعدوِّ بمرْصَدِ[3]
هيهات يحيي الملك دون مشورةٍ ... ويَعِزُّ ركنُ المجد مالم يُعْمَدِ[4]
فالسيف لا يمضى بدون رويَّةٍ ... والرأى لا يمضى بغير مهنَّدِ[5]
ولأنت أوَّلُ من أفاد بعدْلِهِ ... حريَّةَ الأخلاق بعد تعبدِ
أطلقتَ كل مقيَّدٍ وحللتَ كـ ... ـلَّ معقَّـدٍ وجمعت كل مبدَّدِ
وتمتَّعتْ بالعدل منك رعيَّةٌ ... كانت فريسةَ كلِّ باغٍ مُعْتَدِ

وكأن البارودى يريد أن يأخذ على توفيق عهداً للأمة أن يصدر دستورها ويجمع مجلس نوابها ويترك لها تدبير شئونها بنفسها بحيث تصبح حارسة لمصلحتها وصاحبة السيادة فى أرضها ، وتصبح جميع أجهزة الدولة التنفيذية مسئولة أمامها أو بعبارة أدق أمام نوابها الذين اختارتهم وكلاء لها ، وهو يجمع ذلك فى كلمة المشورة ، فالحكم ينبغى أن يكون شورياً ، على الصورة التى وضعها محمد شريف لدستور الأمة . ونراه يدعم دعوته لتوفيق بالدين ، وما أوحت به العناية الربانية للرسول الكريم من التمسك بأهداب الشورى فى مثل قوله تعالى : (وشاوِرْهم فى الأمر) وقوله جلَّ شأنه : (وأمرهم شورى بينهم) . ومعنى ذلك أن الحكومة التى يرتضيها الدين الحنيف لأتباعه يجب أن تكون شورية لا استبدادية شأن حكومة إسماعيل وسابقيه من الأسرة العلوية . ويعلن البارودى لتوفيق أنه إن نكص على عقبيه فلم يُمْض حكمه شورياً لم يرشد وضلَّ عن سواء السبيل . وينصحه أن يُعْنَى بالجيش وعَدَده وعُدَّته ، فهو درع الأمة الواقى الذى يحميها ويصون استقلالها ويسحق أعداءها

(١) عصمة : وقاية .
(٢) السؤدد : السيادة والمجد .
(٣) المرصد : موضع الارتقاب .
(٤) يعمد : يقام له عماد يعتمد عليه .
(٥) المهند : السيف . لا يمضى : لا يقطع .

سحقًا . ويجعله كأنه أشاع العدل المقدس ، فلم يعد هناك ظلم ولا سخرة ولا سادة وعبيد .

ولا يلبث هذا النداء بل هذا الحلم أن يتبدَّد ، إذ يضع توفيق يده فى يد أعداء البلاد : الإنجليز والفرنسيين فلا يبرم أمراً إلا بوحى منهم ، ويسوِّلون له أن لا يُصْدر الدستور ولا يدعو مجلس شورى النواب ، فيستقيل محمد شريف . ويمضى توفيق فى حكم البلاد دون دستور ولا هيئة نيابية ، ويعيد الرقابة الثنائية ، ويجعل للرقيبين الإنجليزى والفرنسى حق حضور جلسات مجلس النظار ، وبذلك يصبحان ناظرين أو وزيرين مقنَّعين . ويحاول أن يمسك بزمام مجلس النظار ، فيجعله برياسته ، ثم يسلمه إلى رياض فى ٢١ من سبتمبر سنة ١٨٧٩ ومن عجب أن نرى البارودى الثائر لا ينفض يده من الوزارة بعد استقالة محمد شريف ، فقد ظل ناظراً أو وزيراً للأوقاف ، وتوفيق ورياض يشددان الخناق على الأمة ويُطْلقان العِنان لأعدائها من الأجانب . ويظهر أنه رضى بذلك ضرباً من المصانعة ، حتى لا تتضح نواياه الحقيقية ، وحتى تظل مستورة إلى حين ، وقد مضى ينهض بإصلاحات كثيرة فى وزارته ، وكان من أهم ماتنهض به أن أمر بجمع الكتب الموقوفة المتفرقة فى المساجد ووضعها فى مكان واحد ، وبذلك حفظ هذا التراث القومى من الضياع . وأيضا فإنه أمر بجمع الآثار العربية ووضعها فى مسجد الحاكم استعداداً لبناء دار خاصة بها عند سنوح الفرصة .

وبينما كان البارودى يضطلع بأعباء وزارته كان توفيق ورياض اللذان نُكبت بهما البلاد يضيفان إلى أغلال التدخل الأجنبى التى مُنيت بها فى عهد إسماعيل أغلالاً وقيوداً جديدة ، تارة فى صورة مستشارين وموظفين يُفْرَضُون على الدواوين الحكومية ، وتارة فى صورة مؤسسات وشركات تستنفد موارد الشعب ومدَّخراته ، وبلغ من خُرْقهما أن تنازلا — كما أسلفنا — عن أرباح مصر فى قناة السويس لقاء اثنين وعشرين مليونًا من الفرنكات . وأخذا يخنقان الشعب خنقًا لا بطغيانهما وظلمهما وحكمهما الاستبدادى الصارم فحسب ، بل أيضا بالسخرة والنفى والتشريد والعسف الشديد . وأخذ الشعب يلعنهما ويرميهما بشر الصفات ، وتعالت أصوات الصحف تُنْذر وتندد وتوجه لهما قارص النقد ، وتكونت جمعية سرية باسم الحزب

الوطنى منذ نوفمبر سنة ١٨٧٩ جعلت مقرها حلوان ، وأخذت تطبع منشورات تكشف فيها عن مساوئ الحكم توزعها فى البلاد وتنشرها فى بعض الصحف الفرنسية ، فارتجف توفيق ورياض ارتجافاً شديداً ، غير أنهما ظلا فى غيهما لا يرعويان . وقد ضمت هذه الجمعية كثيرين من أعيان البلاد وجلة ذوى الرأى فيها وبعض مديرى أقاليمها ، يتقدمهم أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وعبد العال حلمى وعلى فهمى . وانتظام البارودى فى هذه الجماعة يؤيد ما زعمناه من أنه أراد أن يعمّى موقفه الحقيق على توفيق ورياض ، ولعله أراد باستمراره فى وزارته أن يكون عينا لرفاقه عليهما ، حتى يكونوا على بصيرة بما يتخذان من قرارات .

وكان رياض قد وضع عثمان رفق الشركسى على وزارة الحربية والبحرية فكان وضعه على رأس تلك الوزارة ضِغثا على إبّالة، إذ كان شركسياً ذمياً ، فسوّل له شيطانه أن يضطهد ضباط الجيش الوطنيين وأن يحرمهم من الترق إلى المناصب الرفيعة ، بينما يخص بها أبناء جنسه من الضباط الشراكسة والأتراك على الرغم مما جلّلهم من عار فى الحروب المصرية الحبشية . وامتلأت صدور الضباط الوطنيين عليه موجدة وحفيظة فأجمعوا أمرهم بينهم على مقاومته حتى الموت . وتقدم عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى فى ١٧ من يناير سنة ١٨٨١ بمذكرة إلى الحكومة حاسرين غير مقنّعين ، يطالبون فيها بعزل عثمان رفق وتعديل القوانين العسكرية تعديلاً يحقق العدل والمساواة بين جميع الضباط فى الجيش . وقرر مجلس النظار محاكمتهم، واستدرجهم رفق حتى اعتقلهم ، وسارع زملاؤهم فى الجيش ومعهم جنودهم فردوا إليهم حريتهم ، وارتعدت فرائص توفيق وجمع مجلس النظار ليتشاور معه فى الأمر ، حينئذ انبرى البارودى يشير عليه بإجابة مطالب عرابى ورفاقه ، وصدع راغماً لمشورته ، وبذلك انحسر جانب من القناع الذى كان يُسدله على وجهه ، إذ عرف توفيق ما بينه وبين عرابى والجيش من ثقة متبادلة ، ومن ثمّ ضمّ إليه وزارة الحربية والبحرية . وخرج رفق مدحوراً على وجهه ، وسرعان ما أخذ البارودى فى إصلاح القوانين العسكرية مع زيادة رواتب الضباط والجند . ولم يقر قرار توفيق ، فقد أخذ يثير الفتن فى الجيش ضد عرابى وصحبه ، وأعيته الحيل ، فأقصى البارودى عن الوزارة نزولا على رأى رياض وغيره من أصحاب الدس الوضيع ، وفى ذلك يقول :

نقموا عليَّ حَمِيَّتي فتألَّبُــوا حزباً عليَّ وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بِفرْيتهم فلما صادفوا سمعاً يميل إلى الملام توسَّعوا[1]

وانتقم البارودى لنفسه من رياض ووقيعته الدنيئة ، إذ رسم فى قصيدة طويلة ضاعة نفسه وهَوَانه فى نفوس قومه حتى لتتناوله أقلامهم بالثلب والذم ، وهو غارق فى لهوه ، ممعن فى مباذله إمعان الضَّرِع الذليل ، يقول :

فيابن مَنْ تزدريهِ النفس من ضَعَةٍ فما يُحَسُّ له وُجْدٌ وإعدامُ
دَع الفخارَ وخُذْ فيما خُلِقْتَ له من الصَّغار فإنَّ الطبع إلزام
ويَلُمُّها خِزْيَةً طارتْ بشُنْعتها صحائفٌ وجَرتْ بالذم أقلامُ
وكيف يصلح أمْرُ الناس فى بلدٍ حُكَّامُه لبنات اللَّهْو خُدَّامُ

ويظهر أن رياضًا وتوفيقًا بثَّا العيون والأرصاد من حوله ، ليقفا على صلته بعرابى وصحبه من جهة وصلته بالجمعية الوطنية أو الحزب الوطنى من جهة ثانية ، وأحسَّ تربصهما به ، فولَّى وجهه شطر ضَيْعته بناحية قرقيرة فى محافظة المنصورة بشمالىّ الدلتا . وأطلَّت عليه هناك رَبَّة الشعر ، فنظم قصيدة يتغزل فى مطلعها ويحنُّ إلى أيام الشباب ، ثم أخذ فى وصف القطار الذى أقلَّه ووصف الحقول ونبات القطن ، وهو فى تضاعيفها وخاتمتها يحمد خروجه من الوزارة ورجوع حريته إليه ، يقول :

الحمدُ لله الذى وهبَ العُــلا وسَرَى الأذى عنى فأبصرت الهُدَى[2]

ويتغنى ثانية بقصيدة بديعةٍ يصف فيها محاسن الطبيعة الريفية ومباهج العيش داعيًا إلى البعد عن السياسة وما يحف بها من كيد وخديعة وحقد ومخاطر ومكاره ، يقول :

---

(١) الفرية : الكذبة . (٢) سرى : كشف .

فيابن وُدّى هَلُمّ نَقْتسم اللَّهْوَ فنَفْسِى إلى الصَّباحَسِرَه (١)
وخَلِّنا من سياسةٍ درَجتْ بين أناسٍ قلوبُهم وَغِرَه (٢)
يقضون أيامهم على خَطَرٍ فبِئْسَ عُقْبَى السياسةِ الخَطِره
خديعةٌ لا يزال صاحبُها بين همومٍ وعيشةٍ كَدِرَه

ولكن أيعتزل السياسة حقاً ويعود إلى لهوه القديم ، يغرد بالخمر والحب ، والشعبُ من حوله قد نهض يطالب بحقوقه ، الشعب الذى طالما استفزَّه ليثور على الظلم والبغى والعدوان ؟ لقد رأى أن يرجع إلى شعبه ؛ فرجع إليه قوياً نشيطاً شديد الأمل فى أن يعصف هذا الشعب برياض وغيره ممن انتهكوا حرماته ، وأخذ يلقى الناس ويتحدث إليهم فى شئون الوطن . وما هى إلا أيام حتى ثار الجيش فى ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ بقيادة عرابى مطالباً بعزل رياض وإعادة مجلس شورى النواب وزيادة عدد الجيش حتى يصبح قلعة حصينة للأمة يردّ عنها كيد المعتدين . وأذعن توفيق فعزل رياضاً وعهد إلى محمد شريف بتأليف مجلس نظار جديد ، فأشرك البارودى معه ناظراً للحربية والبحرية ، وأنشأ مجلساً نيابياً حراً . وأخذ يعرض عليه الدستور الذى كان قد أعدَّه لأواخر عهد إسماعيل والذى تنص إحدى مواده على أن يكون للمجلس النيابى الحق الخالص فى تقرير الميزانية . وأسرعت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية ، فقدمتا — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — مذكرة زعمتا فيها أنّ جَعْل تقرير الميزانية حقاً للمجلس من شأنه أن يمسّ حقوق الدائنين . ورأى محمد شريف أن يؤجل النص فى الدستور على هذا الحق ، ولكن المجلس رأى فى ذلك مساساً بكرامة الأمة وهدراً لحقوقها الشرعية ، حينئذ اعتزل محمد شريف الحكم فى ٢ من فبراير سنة ١٨٨٢ .

ودعا توفيق البارودىَّ إلى تأليف مجلس النظار الجديد ، فألفه من زعماء الثورة العرابية وأنصارها ، وجعل لعرابى نظارة الحربية والبحرية ، وجعل للسودان نظارة تختص بالنظر فى شئونه ، ومضى يطهر الجيش من جراثيم الفساد الشركسية والتركية ،

(١) حسرة : متلهفة . (٢) وغرة : ممتلئة حقداً .

وأعلن الدستور، ناصًّا فيه على أن لمجلس النواب الحق النهائى فى تقرير الميزانية. وتحتج إنجلترا وفرنسا فلا يكترث لاحتجاجهما ، ويأخذ فى إصلاح أداة الحكم وتأخذ إنجلترا فى الدس الرخيص بين حكومته وتوفيق ، ويصبح فى يدها دُمْيَةً تعبث به وتلعب كيف تشاء . ومايوافى شهر إبريل حتى تنكشف — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — مؤامرة وضيعة لطائفة من الضباط الشراكسة كانوا قد تآمروا على اغتيال عرابى ومن معه من النظار واغتيال بعض كبار الضباط الوطنيين ، وقُدِّموا إلى محكمة عسكرية فحكمت بنفيهم المؤبَّد إلى السودان وتجريدهم من رتبهم وكل امتيازاتهم . وطُلب إلى توفيق التصديق على الحكم فأبى بإيحاء من قنصلى إنجلترا وفرنسا . وثارت ثائرة البارودى وعرابى ومن معهما من النظار ، ولم يَرْعَوِ توفيق ، إذ مضى يعدِّل الحكم إلى النفى من مصر دون تقيد بالسودان مع عدم حرمان هؤلاء الخونة من رتبهم ونياشينهم . واتسعت هوة الخلاف بين الوزارة وتوفيق وتنادى كثيرون بوجوب خلعه ، وحاول بعض أذنابه أن يقنعوا البارودى وعرابى بقبول هذا الضَّيْم ، وهنا نرى البارودى تحتدم فى نفسه الثورة على توفيق احتداماً عنيفاً ، وينظم قصيدة طويلة يصور فيها إصراره على موقفه وأنه لن يهدأ حتى تراق دماء الباغى غزيرة أو يثوب إلى رشده ، يقول :

حسبوا التحول فى الطباع خليقةً ... وتحوُّل الأخلاق ليس يُطاقُ
تالله أهدأُ أو تقومَ قيامةٌ ... فيها الدماءُ على الدماء تُراق[1]
أنا لا أقرُّ على القبيح مهابةً ... إن القرار على القبيح نفاق
قلبى على ثقةٍ ونفسىَ حُـرَّةٌ ... تأبى الدَّنِىَّ وصارمى ذَلَّاق[2]
وعلام يخشى المرءُ فُرْقة روحـهِ ... أو ليس عاقبةَ الحياة فراق

ويمضى فيتحدث عن توفيق وبطانته السيئة وأن الرفق معهم ولين الجانب يبطرهم ولا يستلّ ضغينتهم إذ استحبوا الضلالة على الهدى . ويحض بقوة على الثورة مهوِّناً

(١) أهدأ هنا : لا أهدأ . حذف النفى مع القسم كثير .
(٢) الصارم : السيف القاطع . ذلاق : حاد نافذ .

من شأن الموت الذى يدور كأسه على كل حى ، إن الموت الزُّؤام خير من حياة مهينة ، وإنه لواجب على الشعب أن يتجمّع ليضرب خصمه الضربة القاضية . وما يلبث أن يصيح بتوفيق :

عِدادك فى سلك البَرِيَّة خــزيةٌ ودعواك حقَّ الملك أدهى وأعظمُ
لقد هانتِ الدنيا على الناس عند ما رأوك بها فى ملك يوسف تحكم (١)
فإن تلك أولئك المقاديرُ حكمها فقد حازها من قبلُ عَبْدٌ مُزَنَّمُ (٢)
وشتان عبْدٌ بالمحجَّة ناطقٌ وحرٌّ إذا ناقشته القول أغْتَمُ (٣)
وهذا أذلَّ الملك وهْو معززٌ وذاك أعزَّ الملك وهْو مهضَّمُ (٤)
فمن شكَّ فى حُكم القضاء فهــذه جليّةُ ما شاء القضاءُ المحتَّم

وهو يصور محنة مصر بتوفيق الذى خلف يوسف الرسول الكريم على خزائنها وملكها الطاهر ، وتَمْثُلُ فى مخيلته أهاجى المتنبي فى كافور ، ويراه جديراً بالمديح إذا قيس إلى توفيق ، الذى هَوَى بالوطن من حالق وأخذ يكسوه الذل والهوان ، ويرى فى ذلك سخرية من سخريات القدر وقضائه المحتوم . ويدعو البارودى المجلس النيابى ليفصل بين الحكومة وتوفيق فى التعديل آنف الذكر الذى أدخله على الحكم ، ويجتمع المجلس فى ١٢ من مايو ، ويقرر انتداب لجنة تتوسط بين الطرفين ، ويسوّى الخلاف . غير أن توفيقاً مضى يتعلق بأهداب الإنجليز والفرنسيين ، حتى غدا كأنه عميل لهما ، وسرعان ما أرسلا له ببوارج من أسطوليهما خاضت مياه الإسكندرية ، وما وافى يوم ٢٥ من مايو حتّى قدّم القنصلان : الإنجليزى والفرنسى إنذاراً إلى حكومة البارودى يطالبان فيه باستقالة الوزارة وإبعاد عرابى عن مصر وعبد العال حلمى وعلى فهمى إلى بعض قرى الريف . ومزقت الحكومة الإنذار

(١) يشير إلى ما جاء فى سورة يوسف من قيامه على خزائن مصر وتبوئه منها حيث يشاء .

(٢) عبد مزنم : يريد كافورا الإخشيدى ، وكان عبداً اشتراه الإخشيد سلطان مصر ومضى عنده يتقدم بحصافة عقله وشجاعته حتّى أصبح من كبار قواده ، وصار إليه حكم مصر ، ونزل به المتنبى فمدحه ثم هجاه هجاء مراً . مزنم : مستلحق بغير قومه .

(٣) أغتم : عيى لا يبين . (٤) مهضم : كسير ذليل .

غير أن توفيقاً الآثم أعلن قبوله له، فاكفهرَّ الجو وقدم البارودى استقالته .. ونعجب أن يستقيل ولا يُجْهز على توفيق ، منفذاً عزمه على الثورة الدامية ، إذن لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث ، ولما حاقت بمصر كارثة الاحتلال المشئوم .

استقال البارودى ، غير أن عرابى ظل يصرِّف شئون وزارة الحربية والبحرية ، ولم يجد توفيق بين كبار المصريين من يرضى بتأليف مجلس نظار جديد ، وغامت السماء وعم الظلام ، وأخذت تنهار الآمال التى أحيتها فى نفوس الأمة ثورة عرابى والجيش فى ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ إذ أخذ المصريون يأملون فى حكم عادل رشيد ، يُسْقط عنهم الظلم والطغيان ، وفى ذلك يقول البارودى :

كنا نودُّ انقلاباً نستريحُ بهِ ... حتى إذَا تمَّ ساءتْنا مَصايِرُهُ
تنكرتْ مصرُ بعد العُرْف واضطربتْ ... قواعدُ الملك حتى رِيع طـائرُهُ[1]

فالملك أو الحكم قد تزعزع واضطرب ، واستحكم الهول ، حتى إن أحداً لا يجرؤ على تأليف الوزارة ، ولكن ألا ينكشف هذا الظلام الذى غمر البلاد ؟ إن البارودى غير يائس من انكشافه ، ولكن عن طريق واحد: طريق الثورة الحمراء الذى طالما هتف به ، ويصرخ :

لعل بُلْجَةَ نورٍ يستضاءُ بها ... بعد الظلام الذى عمَّتْ دياجرُهُ[2]
إنى أرى أنفساً ضاقتْ بما حملتْ ... وسوف يَشْهَرُ حدَّ السيف شاهِرُهُ[3]
شهرانِ أو بعضُ شهرٍ إن هى احتدمتْ ... وفى الجديدين ما تُغْنى فَواقِرُهُ[4]

غير أن السيف ظل فى غمده ولم يُشْهَرْ فى حينه ، وانتهز الإنجليز الفرصة كى يحتلوا البلاد فدبروا فى ١١ من يونية مذبحة الإسكندرية المشهورة ، وانتقل إليها توفيق ليكون على مقربة من أسطولهم ، وليستند ضد شعبه

---

(١) العرف : ضد النكر ، ويراد به ما تطمئن إليه النفس من الخير . ريع : فزع . والعبارة كناية عن اضطراب الأمن وشيوع الفوضى . (٢) بلجة النور : ضوء آخر الليل عند انبلاج الصباح .
(٣) يشهر السيف : يتنضيه ويرفعه من غمده على عدوه .
(٤) الجديدان : الليل والنهار . الفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .

على حرابهم . ولم تلبث مدافع الأسطول الإنجليزى أن ضربت الإسكندرية فى ١١ من يولية وأبلى الجيش والشعب الإسكندرى بلاء عظيماً فى دفع العدوان الأثيم . وانسحب الجيش — بأمر عرابى — إلى كفر الدوار ، وأخذ فى تحصين سواحل مصر وتعزيز خطوط دفاعه غربًا وشمالا وشرقًا . وحين احتدم أوار الحرب فى الميدان الشرقى دعا البارودى إلى الاشتراك فى واقعة القصاصين فلبّاه ، على الرغم من أنه لم يكن من رأيه فى محاربة الإنجليز ، يقول :

نصحتُ قومى وقلت الحرب مفجعةٌ ... وربما تاح أمرٌ غير مظنونِ
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعةٌ ... وأصبح الشر أمرًا غير مكنونِ
أجبتُ إذ هتفوا باسمى ومن شيمى ... صِدْقُ الولاء وتحقيق الأظانين

ويذهب عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى » إلى أنه لم يشترك فى الواقعة المذكورة وأنه ضل الطريق بين الصالحية والقصاصين ، ويقول أيضًا إنه لم يشترك فى واقعة التل الكبير ، ولكن فى أشعار البارودى ما يدل على أنه اشترك فى وقائع الحرب وأنه مضى يستبسل فيها حتى خذله بعض من معه ، إذ امتدت إليهم بعض أفاعى توفيق ، وأعانتهم الطعنة التى سددها العثمانيون إلى الجيش المقاتل بإعلان عصيان عرابى ، ومن ثَمّ يقول البارودى من قصيدة طويلة :

همُ عرَّضونى للقَنَا ، ثم أعرضوا ... سِراعاً ولم يَطْرُقْ من الشَّرِّ طارقُ
إذا المرءُ لم يَنْهَضْ بقائم سيفه ... فياليت شعرى كيف تُحْمَى الحقائق [1]

فهو حين دُعى إلى حمل راية الجهاد فى تلك الحرب الوطنية لم ينكل ولم يتخاذل ، بل مضى قُدُمًا يجاهد ويناضل حتى تخلى عنه أنصاره ، يقول :

وكنــا جميعــاً فلما وقعتُ ... صَبَرْتُ وغادرنى معشرى

وفى ذلك ما يدل على أنه لم ينكص على عقبيه وأنه أسهم فى وطيس القتال ، وفى رأينا أن من الظلم له أن يقال إنه كان طوال الثورة العرابية يعمل لحساب نفسه

(١) الحقائق : جمع حقيقة وهى ما يجب الدفاع عنه من أصل وعرض ومال أو هى الأوطان .

لا لحساب أمته ، إذ كان يطمح إلى الجاه والسلطان ، بل لقد كان يطمح إلى الاستيلاء على عرش مصر وأنه من أجل ذلك ألّب العرابيين على محمد شريف ، ليستقيل ويصبح هو رئيس مجلس النظار ، وما استوى على منصة الحكم حتى أخذ يوسع مسافة الخلف بين توفيق والعرابيين ، كي يعملوا على إزاحته عن صدر مصر ، وبذلك يخلو له الجو ويعتلى عرشها العظيم .

ونحن لا نبرئه من هذا الطموح ، وخاصة أنه كان أهم شخصية سياسية بين العرابيين الثائرين ، غير أننا نجعله ينشأ فى نفسه مع الزمن وفى أثناء الحوادث ، ومعنى ذلك أننا نقدم على هذا الطموح الشخصى آماله القومية الوطنية فى فك أغلال النفوذ الأجنبى عن عنق مصر وتخليصها من قبضة الظلم والسخرة والاستبداد وردّ حريتها إليها وسيادتها عن طريق اشراكها فى الحكم بحيث يكون حكمًا شوريًّا ، وبحيث يكون لها فيه الكلمة العليا . غير أن آماله تحطمت وزُجَّ به فى غياهب السجون ، بل لقد أصبح أبناء مصر جميعًا حبيسين فى سجن الاحتلال البغيض . ومرت على البارودى أيام سود فى سجنه ، ينتظر فى أثنائها محاكمته مع رفاقه ، وأمسك بريشته يصف هذا السجن قائلا :

شَفَّنى وَجْدى وأبْلانى السَّهَـرْ ... وتَغَشَّتْنِى سَمادِيرُ الكَدَرْ[1]
فسوادُ اللَّيْلِ ما إنْ يَنْقَضِى ... وبياضُ الصُّبْحِ ما إن يُنْتَظَرْ
لا أنيسٌ يسمع الشكوى ، ولا ... خَبَرٌ يأتى ولا طيْفٌ يَمُرّْ
بين حِيطـانٍ وبابٍ موصَـدٍ ... كلما حرّكه السَّجّانُ صَرّْ[2]
يتمشَّى دونه ، حتى إذا ... لحقتْه نَبْأَةٌ مِنّى استقرّْ[3]
كلما دُرْتُ لأقضى حاجـةً ... قالتِ الظلْمَةُ : مهلاً لا تَدُرْ

---

(١) سمادير : جمع سمدور وهو غشاوة العين ، ويريد بها الهموم .
(٢) موصد : مغلق . صر : من الصرير وهو الصوت .
(٣) دونه : قريباً منه . نبأة ، صوت ضعيف . استقر : ثبت ووقف .

أتقرّى الشيءَ أبغيــه ، فلا أجد الشيءَ ولا نَفْسى تَقَرْ[1]
ظلمةٌ ما إن بها من كوكبٍ غَيْرُ أنفاسٍ ترامَى بالشَّرَرْ

وحوكم مع عرابى ورفاقهما أمام محكمة عسكرية ، شُكِّلت من خصومهم ، وكانت المحاكمة مهزلة المهازل ، إذ حُكم عليهما وعلى عبد العال حلمى وعلى فهمى وطلبة عصمت ويعقوب سامى ومحمود فهمى بالنفى المؤبد ، واختارت لهم الحكومة الإنجليزية جزيرة سرنديب . وأصدر توفيق أمراً بمصادرة أملاكهم ، وأمراً ثانياً بتجريدهم من جميع الرتب والألقاب . وبلغ العسف أقصى مداه فحُكم على كثير من العرابيين بالنفى المؤقت أحكاماً تتراوح بين سنتين وعشرين سنة ، وجُرِّد كثيرون من رتبهم وامتيازاتهم ومناصبهم مع تحديد إقاماتهم. غير أن الثورة العرابية إن كانت قد أخفقت ، فإن روح الشعب ظلت قوية رغم محنة الاحتلال ، وسرعان ما أخذت تقاوم المحتلين الباغين ، لا تهدأ ولا تستكين ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

٤

فى المنفى وبعده

حُكم على البارودى بالنفى إلى سرنديب مع رفاقه من زعماء الثورة العرابية ، فظل بها نيفاً وسبعة عشر عاماً ، كانت فيها رَبَّة الشعر محزونة حزناً عميقاً ، محزونة على آمال مصر التى تحطمت معها آمال شاعرها ، ومحزونة على فراق الأصدقاء والأقرباء وخاصة شريكة الحياة وأفلاذ الأكباد ، ومحزونة على ملاعب الصبا والشباب التى طالما غرَّدت فيها بصوتها العذب فرحة مبتهجة ، وقد أخذت تشدو شدوها الحزين منذ حاقت بالجيش كارثة الهزيمة ، وأخذت الهموم تصهرها فمن سجن إلى حكم بالنفى المؤبد إلى مصادرة للأملاك ، ويبلغ اليأس من نفس

(١) أتقرى : أتتبع وأتلمس . تقر : تستقر وتطمئن وتسكن .

البارودى ، ويصيح بتوفيق :

يا أيُّها الظالمُ فى مُلْكِهِ أغرَّك الملكُ الذى يَنْفَدُ؟
اصنَعْ بنا ما شئتَ من قسوة فاللهُ عَدْلٌ والتَّلاق غَدُ

وما يوافى مساء ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ حتى يُعَدَّ للبارودى ورفاقه قطار خاص فى ثكنة قصر النيل يُقِلّهم إلى السويس ، وفى صبيحة اليوم التالى حملتهم باخرة إلى سرنديب ، ونزلوا بثغرها « كولومبو » فى صباح ١٠ من يناير سنة ١٨٨٣ . ويلتاع قلب البارودى لفراق الوطن ، وتظل ساعات وداعه ماثلة فى خياله ، والدموع تنهمر من عينيه ، فيتناول قيثارته ، ويتغنى بصوت شجىٍّ إحدى فرائده ، وفيها يقول مصوراً لوعته فى أثناء الرحيل :

ولما وقفنا للوداع وأسبلتْ مدامعنا فوق التَّرائب كالمُزن[١]
أهبتُ بصبرى أن يعود فعزَّنى وناديتُ حلمى أن يثوب فلم يُغْنِ[٢]
وما هى إلا خطوة ثم أقلعتْ بنا عن شطوط الحىِّ أجنحة السُّفْن
فكم مهجةٍ من زفرة الوجد فى لظًى وكم مقلة من غَزْرة الدَّمْع فى دجْن[٣]
وما كنت جرَّبت النَّوى قبل هذه فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن[٤]
ولكننى راجعتُ حلمى وردَّنى إلى الحزم رأىٌ لا يحوم على أَفْنِ[٥]
ولولا بُنَيَّاتٌ وشِيبٌ عواطلٌ لما قرعتْ نفسى على فائتٍ سِنِّى[٦]

وقد مضى يعيش مع صحبه فى « كولومبو » بنفس قوية صلبة، على الرغم مما أناخ به من الظلم والنفى والتشريد ، وكأنما كل ما أصابه من محن لم يمسّ إلا ظاهر

---

(١) أسبلت : انهمرت . المزن : السحاب الممطر .
(٢) أهبت : دعوت . عزنى : غلبنى وتصعب على . يثوب : يرجع .
(٣) الوجد : الشوق . لظى النار : لهبها . الدجن : المطر الكثير .
(٤) النوى : البعد والفراق . أقضى : أمرّ.
(٥) أفن : ضعف وفساد .
(٦) عواطل هنا : لا يكسبن ما يقوّمهن . قرع السن : ندم .

نفسه ، أما جوهرها فبقى صافياً وضيئاً ، ومن ثم بقى له اعتداده بنفسه وإحساسه ببعد همته ، وباضطرام نيران العزة فى قلبه ، يقول مصوراً ارتفاعه عما أصابه من ضيم :

أنا إن عشتُ لستُ أعدم قوتا ... وإذا متُّ لست أعدم قَبْرَا
همّتى همة الملوك ونفسى ... نفس حرٍّ ترى المذلَّةَ كفرا

ويظهر أنَّ مِنْ رفاقه من كان يزيد عيشه كدرا ، باتهامه أنه إنما ثار طمعاً فى الملك لا غضباً لمصر ومادهمها من أرزاء الظلم وتغلغل النفوذ الأجنبى ، وكان ذلك يؤذى نفسه إيذاء شديداً ، فنظم قصيدة طويلة صوَّر فى مطالعها احتفاظه بشعور العزة والكرامة أمام عوادى الزمن وخطوبه ، ثم أخذ يرد على الاتهام الباطل قائلا :

يقول أناسٌ إننى ثُرْتُ خالعــاً ... وتلك هَناتٌ لم تكن من خلائقى (١)
ولكننى ناديتُ بالعدل طالباً ... رضا اللهِ واستَنْهضتُ أهل الحقائق (٢)
أمرتُ بمعروفٍ وأنكرتُ منكرًا ... وذلك حكمٌ فى رقاب الخلائق
وإن كان عصياناً قيامى فإننى ... أردتُ بعصيانى إطاعَة خالقى
وهل دعوةُ الشورى علىّ غضــاضةٌ ... وفيها لمن يبغى الهُدَى كلُّ فارقِ (٣)
بلى ! إنها فرض من الله واجبٌ ... على كل حَىٍّ من مَسُوقٍ وسائق (٤)
على أننى لم آلُ نُصْحاً لمعشرٍ ... أبى غَدْرُهم أن يقبلوا قول صادقِ (٥)
رأوا أن يسوسوا الناس قهراً فأسرعوا ... إلى نَقْض ما شادتْه أيدى الوثائق (٦)
فلما استمرَّ الظلم قامتْ عصابةٌ ... من الجُنْد تسعى تحت ظِلِّ الخوافق (٧)

---

(١) هنات : خصال سوء . خلائق : طباع .
(٢) يريد بأهل الحقائق حماة البلاد الذين يصونون حقوقها .
(٣) فارق : أى بين الحق والباطل .
(٤) يريد بالمسوق المحكوم وبالسائق الحاكم .
(٥) لم آل نصحا : لم أقصر فى النصح .
(٦) يسوسوا : يحكموا . ويريد بالوثائق مواثيق الدستور وعهوده .
(٧) الخوافق : الرايات والأعلام .

وشايعهم أهلُ البلاد فأقبلوا إليهم سراعاً بين آتٍ ولاحقِ
يرومون من مولى البلاد نفاذَ ما تألّاه من وعدٍ إلى الناس صادق[1]
فهذا هو الحقُّ المبينُ فلا تَسَل سواى فإنى عالمٌ بالحقائق

والبارودى ينفى عنه فكرة الخلع وبعبارة أخرى ينفى فكرة الطمع فى الملك ، محاولاً أن يرد ثورته إلى طمع فى أن يسود العدل حكم مصر ، وأنه انساق فى ذلك بباعث من الدين الحنيف الذى يأمر أتباعه أن ينصحوا للناس والحكام باتباع المعروف والانتهاء عن كل منكر ، كما يأمر بالعدل وإعطاء كل ذى حق حقه . فهو إذا كان قد ثار وعصا فما أراد بذلك إلا طاعة الله من النداء بالعدل وبأن يقوم الحكم على الشورى التى فرضها الله على عباده . ويقول إنه حاول أن يردّ توفيقاً عن غيّه وبَغْيه واستبداده ، فلم ينتصح بل مضى يعتدى على دستور الأمة وحقوقها المشروعة ، وثار الجيش وثار الشعب ، يطالبان توفيقاً باحترام الدستور الذى أقسم على الولاء له ، غير أنه حنث مراراً فى قسمه ، وتطورت الأحداث .

وعلى هذا النحو ينفى البارودى التهمة عن نفسه ، وليس معنى ذلك أن ملكه لمصر لم يدر بخلده ، فربما فكر فيه ، وذلك لا يعيبه ، إذ كان ينبغى حقاً أن يخرج ملكها من أيدى الأسرة العلوية الدخيلة إلى أيدى الأحرار من أبناء الوطن أمثال البارودى وعرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى . وإنما يدفعه إلى نفى التهمة أنها إن صحت وكانت هى التى دفعته وحدها للثورة نالت من وطنيته ، ولذلك ردّ عليها بقوة ، وقد عاد للرد عليها ونفيها فى قصيدة ثانية مؤكداً أنه ثار لدينه ولوطنه ، يقول :

لم أقترفْ زلّةً تَقْضِى علىّ بما أصبحتُ فيه فماذا الوَيْلُ والحَرَبُ؟[2]
فهل دفاعىَ عن دينى وعن وطنى ذنبٌ أُدَانُ به ظُلْماً وأغْتَرِب ؟
فلا يظنّ بى الحسّادُ مندمةً فإننى صابرٌ فى الله مُحْتَسِبُ

(١) تألاه : أقسم عليه وحلف .
(٢) أقترف : أرتكب . الويل : العذاب . الحرب : السلب .

أثريت مجدًا فلم أعْبَأْ بما سَلبتْ أيدى الحوادث منى فهْو مُكْتَسَبُ

ودائمًا يلقانا البارودى فى منفاه بهذه الروح القوية ، التى تجعله يعلن أنه غير نادم ، والتى تجعله يعتز بنفسه ، وكأنها صخرة يتحطم عليها — دون أن ينال منها — كل ما يطيف بها من ألم أو ضيق أو يأس . وقد ظل يعلن احتماله للنفى بإباء وشمم ، وظل يقاوم صامداً للمحنة ، معتمداً على إيمانه بربه ووطنه ، ولم يحدث أن انكسرت نفسه يومًا ، بل لكأنما زادها النفى صلابة على صلابة وقوة على قوة . وكان كثيراً ما يهيجه ما أصابه من ظلم ، فيثور ثورات عنيفة ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته :

رَضيتُ من الدنيا بما لا أودُّه وأىُّ امرئٍ يَقْوَى على الدهر زَنْدُهُ

ويتحدث عن الحب والشباب والشيب ، ويأسى لقلة الصديق وندرة الوفاء ، وعنت الزمان بما سلط فى مصر الأوغاد على الأحرار والوضيع الخسيس على السيد الشريف ، ويدعو الشعب إلى ثورة تعصف بحكامه المستبدين به ، وفى ذلك ما يدل على أن اليأس من الشعب وثورته على ظالميه لم يداخله يومًا ، يقول :

أبى الدَّهْرُ إلا أن يسود وضيعُه ويملكَ أعناقَ المَطالب وغْدُهُ
فحتَّام نَسْرِى فى دياجير محنة يضيقُ بها عن صُحْبة السيف غِمْدُه(١)
إذا المَرْءُ لم يدفع يَدَ الجَوْر إن سَطَتْ عليه فلا يأسفْ إذا ضاع مَجْدُه(٢)
ومن ذَلَّ خَوْف الموتِ كانتْ حياته أضرَّ عليه من حِمامٍ يودُّه(٣)
وأقتلُ داءٍ رُؤْيَةُ العين ظالماً يُسِيءُ ، ويُتْلَى فى المحافل حَمْدُه

---

(١) دياجير : ظلمات . نسرى : نسير ليلا . غمد السيف : جفنه الذى يوضع فيه .
(٢) سطت عليه : بطشت به وقهرته .
(٣) حمام : موت . يؤده : يقضى عليه .

علامَ يعيشُ المَرْءُ فى الدهر خاملاً ؟ أيفرح فى الدُّنيا بيوم يَعُدُّه ؟
عفاءٌ على الدُّنْيا إذا المرءُ لم يَعِشْ بها بطلا يحمى الحقيقةَ شَـدُّه[1]
وإنى امرؤٌ لا أستكين لصولةٍ وإن شَدَّ ساقى دون مسْعاى قِدُّه[2]
ولا بُدَّ من يوم تلاعَبُ بالقَنـا أسودُ الوَغَى فيه وتَمْرَح جُرْدُه[3]
تُدَبِّر أحكامَ الطِّعان كُهولُهُ وتَملك تصريفَ الأعنَّة مُرْدُه[4]
قلوبُ الرجال المستبدةِ أكْلُهُ وفيض الدِّماء المستهلَّة وِرْدُه[5]
فإما حياةٌ مثلُ ما تشتهى العُلا وإما رَدًى يَشْفى من الدَّاء وفْدُه[6]

وكأنما يحاول البارودى أن يثير من جديد بركان الشعب ، حتى يسيل حُمَماً وناراً مندلعة على رءوس من أرهقوه بعسفهم وظلمهم ، وكأن شيئاً فيه لم يتغير ، فقد مضى يطمع فى ذلك وكأنه لا يزال فى وطيس المعركة ، ولا يزال ينشد الناس فى مصر ، فيجذبهم إلى الناحية التى يريدها ناحية الثورة على توفيق وأذنابه ومن اتخذوه عميلاً لهم من الأجانب : إنجلترا وغير إنجلترا. وقد مضى يستنهضهم ، ويبث فيهم حمية قوية ليردوا ما يقع عليهم من ظلم وعسف وبغى وعدوان ، وما الحياة وما قيمتها ؟ إن رضا الإنسان بالذل فيها والضيم موتٌ ما بعده موت ، وإن الكريم الشجاع ليهب نفسه من دون وطنه يصونه ويحميه بدمه. ويحس البارودى على الرغم من نفيه كأنما دماء شبابه وفروسيته فى كريت والحروب الروسية التركية تتدفق من جديد فى عروقه فينذر ويهدد بيوم الثورة العتيد الذى يثأر فيه الشعب لعزته وكرامته .

(١) الحقيقة : الوطن الذى يجب عليك أن تحميه ، وكل ما ينبغى أن تذود عنه من أهل ومال . الشد هنا : النضال فى القتال .

(٢) الصولة : السطوة والبطش . شد : أوثق وقيد . القد : القيد .

(٣) القنا : الرماح . الوغى : الحرب . الجرد : الخيل .

(٤) الأعنة : جمع عنان وهو اللجام . وتصريف الأعنة : كناية عن تنفيذ خطط القتال . المرد : جمع أمرد وهو الغلام فى مطلع شبابه .

(٥) المستهلة : المنصبة . الورد : النصيب من الماء .

(٦) الردى : الهلاك . وفده : وفوده وقدومه .

إنه لا ينسى شعبه الذى خُلق ليكون صوته فى تلك الدورة من حياته ، وليهيئه للثورة ، وليقتحم معه معاركها ، وإذا كان قد أخفق فى بعض هذه المعارك فإن المعركة الكبرى تنتظره ، ويغلى البارودى غليانًا يريد أن تنشب تلك المعركة سريعًا ، حتى يُقْتَلع الظلم من جذوره ، وحتى يسقط الظالمون صرعى ظلمهم وبغيهم . وهو فى ذلك تمتزج روحه بروح مصر ، وهو امتزاج قديم ، منذ درج على أرضها ، وتغذى بلبانها ، وطعم طيباتها ، ونعم بمشاهدها ، وثقف من آدابها ، وأسعد قلبه الحب فى معاهدها ، وحارب تحت ألويتها ، وانبعث يهيجها للثورة على الظلم والعدوان ، متغنياً بعظمتها القديمة على نحو ما يلقانا فى وصفه للهرمين . ولقد ظلت تلوح له طوال نفيه على الأفق ، وظلت تأخذ بمجامع قلبه .

ويعجب الإنسان إذ يرى البارودى محتفظًا بكل ما عرفناه عنه من قوة نفسه ، وكان من الممكن أن يشعر بالضياع وأنه لا يزيد عن نقطة ضئيلة فى البحار التى مخرتها سفينة المنفى والتى تحيط به من كل جانب ، غير أن نفسه كانت من القوة بحيث نفضت عنها كل ضعف وكل فتور وكل خور ، فعاد ممتلئًا شباباً ، يفخر ، ويثير ، وينذر ويتوعد ، ويستنهض وينفخ فى روح شعبه ، يريد أن يجمع قواه للمعركة الفاصلة . إنه لا يزال فى سرنديب يلبس نفس الدروع : الدروع النفسية والدروع الحربية ، ولا يزال يُلقى سهام كلامه ، ومصر تستأثر به ، وتستولى على لُبّه ، يقول :

ترحَّلَ من وادى الأَراكة بالوَجْدِ فباتَ سَقيماً لا يُعيد ولا يُبدِى[1]
سقيما تظلُّ العائداتُ حوانياً عليه بإشفاقٍ وإن كان لا يُجْدِى[2]
يَخلْن به مَسًّا أصـــاب فؤاده وليس به مسٌّ سوى حُرَق الوَجْد

ويمضى فى القصيدة يشكو من حرقة قلبه ولوعته وسُهاده كلما لمع فى السماء برق من ناحية وطنه ، وكأنما يبيت على أشواك بل لكأنما يبيت فى أظفار أسد

---

(١) الأراكة : شجرة يستاك بقضبانها ، وقد كنى بوادى الأراكة عن مصر .
(٢) العائدات : زائرات المريض . يجدى : ينفع .

أو بين أنياب حيَّة ، ولا منقذ ولا مغيث :

ولا صاحبٌ غير الحسام مَنُوطَة ... حَمائلُهُ منى على عاتق صَلْدِ [١]
إذا حرَّكته راحتى لمُلِمَّـةٍ ... تطلَّع نحوى يشرئبُّ من الغِمْد [٢]
أقول له والجفْن يكسو نِجـادَهُ ... دموعاً كمُرْفَضِّ الجُمانِ من العقْد [٣]
لقدْ كنتَ لى عونًا على الدهر مرةً ... فما لى أراك اليوم مُنْثَلِمَ الحَدّ [٤]
فقال إذا لم تستطعْ سَوْرَةَ الهَوَى ... وأنت جَليدُ القوم ما أنا بالْجَلد [٥]
وهل أنا إلا شِقَّةٌ من حَديدةٍ ... أَلَحَّ عليها القَيْنُ بالطَّرْق والحَدّ [٦]

والبارودى يحمِّل هذه الأبيات كل عذابه ، فقد أصبح غريبًا وحيداً لا صاحب له سوى سيفه ، ويحس كأنما لا تزال له فتوته وصلابته ، ولا يزال سيفه كدأبه ، إذا أمسك به وهزَّه مدَّ إليه عنقه من غمده ليهوى به على ضَريبته ، ولكن أين منه الضريبة ؟ لقد أصبح كَهاماً لا يقطع أو بعبارة أدق لم يعد للفارس المظفر من فريسة يطعنها الطعنة المصمية ، وكأنما سيفه أصبح مُفَلَّلاً لا يصلح لطعن ولا لنزال ، وسيول الدمع تنهمر على خديه لمصيره والوجد يلذع فؤاده ، وَجْده بوطنه الحبيب ، ويتجه إلى سيفه بالخطاب والعبرات تخنقه : لطالما أعنتنى ونصرتنى وأنجدتنى فى المآزق المهلكة ، فما بالك اليوم لا تأخذ بيدى؟ ويجيبه إنى لم أعد سيفا ، إنى حديدة مشقوقة ، لم تعد تملك لك نفعًا ولا ضرًّا .

وتندلع فى قلبه نار الشوق إلى وطنه ، فيهتف باسم جزيرة المقياس وصاحبته بها ، وتَمثُل فى ذاكرته بكل ما لها من فتنة وإغراء ، ويعلن أنها لا تزال تمدّ جناح

---

(١) الحسام : السيف القاطع . منوطة : معلقة . حمائل السيف : علائقه . العاتق : ما بين المنكب والعنق . صلد : صلب قوى .

(٢) الراحة : بطن الكف . ملمة : نازلة من نوازل الدهر ونوائبه . يشرئب : يمد عنقه متطلعا .

(٣) الجفن هنا : جفن العين . النجاد : حمائل السيف . المرفض : المنثور . الجمان : اللؤلؤ .

(٤) منثلم : مفلل . (٥) سورة الهوى : سطوته وتباريحه . جليد وجلد : قوى صبور .

(٦) شقة : قطعة مشقوقة . القين : الحداد وصانع السيوف . الطرق : الضرب بالمطرقة . الحد : البرى بالمبرد ونحوه .

سلطانها عليه، حتى لو بعثته على أن يرمى بنفسه من شاهق لا نبعث طائعا ، ويحس بدفعة من فتوته تنساب فى أعماق روحه ، فيقول :

وإنى لمقدامٌ على الهَوْل والـرَّدَى بنفسى وفى الإقدام بالنفس مايُرْدِى[١]

وكان مما يؤجج لوعته بغربته انتزاعه من عُقْر داره ومن بين أحضان زوجته الشابة الحبيبة وفلذاتِ كبده ، وبينما هو ذات ليلة غارق فى نومه إذا طيف ابنته الوسطى سميرة يلمُّ به ، فتتقد عواطف الأبوة فى صدره ، وتسيل أنات وزفرات ، إذ يذكر ما كانت فيه هى وأخواتها من سعادة وارفة الظلال :

تعوَّدْنَ خَفْضَ العَيْش فى ظلِّ والدٍ رحيمٍ وبيتٍ شيَّدتْه العناصِرُ[٢]

ويسترسل شاكيًا من الدنيا وخداعها ودواهيها مصوراً احتماله للنفى وخطوبه وكيف يلقاه بالصبر الجميل ويأمل فى الله وأنه لا بد كاشف عنه تلك الغمة ، يقول :

وقد يستقيم الأمرُ بعد اعوجاجِهِ وتنهض بالمرء الجدودُ العَواثِرُ[٣]
ولى أملٌ فى الله تَحْيَا به المُنَى ويُشْرِق وَجْهُ الظَّن والخطبُ كاشرُ[٤]
وطيدٌ يَزِلُّ الكَيْدُ عنه وتَنْقَضِى مجاهدةُ الأيّام وهو مُثَابِرُ[٥]

ويَنْبَرِى للدفاع عن مواقفه التى أدَّت به إلى كارثة النفى ، ويقول إن القدر هو الذى اعترض شجاعته وإنه نهض بأمور الوطن خير نهوض حين كان بيده صولجان الحكم ، إذ أصلح الفاسد وزاد الصالح صلاحًا . ويقول أيضًا إنه وقف مع أمته فى محنتها ، فلم يَغْدُرْ ولم يَخُنْ ابتغاء متاع زائل مما كان بيد توفيق .

---

(١) يردى : من الردى ، وهو الهلاك .
(٢) العناصر هنا : المناقب والمحامد . خفض العيش : دعته ونعيمه .
(٣) الجدود : الحظوظ . العواثر : التى تعثر وترتطم .
(٤) كاشر : من كشر الأسد عن أنيابه إذا غضب .
(٥) وطيد : راسخ . يزل : يسقط .

ويستهين بما صادر من أملاكه ، ويقول إنه إن كان قد تعرَّى من المال والسلطان فإنه يكتسى بأعماله وأمجاده وما قدَّم لوطنه من خدمات ، ويفعمه الرجاء فى أن ما صار إليه من النفى ستنحسر عنه بلواه ، يقول :

ولا غَرْوَ أن حُزْتُ المكارم عارياً فقد يشهد السَّيْفُ الوَغَى وهْو حاسِرُ[1]

وما هىَ إلا غَمْرَةٌ ثم تَنْجَلِى غَيابَتُها واللهُ من شاء ناصِرُ[2]

وعلى هذا النحو ظلت للبارودى فى سرنديب نفسه القوية ، وأخذت تفيض ينابيعها بحنين لا ينضب إلى أهله ووطنه ، وأكثرَ من هذا الحنين كثرة لا تُعْرَف لشاعر عربى من قبله ، وهو تارة يخصُّه بقصائد ومقطَّعات مفردة ، وتارة يمزجه بالحديث عن مواقفه قبل النفى كما يمزجه بالحديث عن كريم شيمه وما حقق لنفسه من مجد خالد بشعره .

وما هى إلا سنوات معدودات حتى أخذ البريد يحمل إليه نَعْىَ بعض أصدقائه وأهله ، فجزع جزعًا شديداً ، وأخذ يصور هذا الجزع فى مراث تمتاز بصدق الإحساس ، وكان من أوائل من طرق سمعه نَعْيُه أحمد فارس الشدياق الذى توفى فى سنة ١٨٨٧ وكان عالمًا لغويًّا وأديبًا كبيراً ، ومن أصدقائه المخلصين ، فأبنه تأبينًا حارًّا يقول فى تضاعيفه :

فقدناه فِقْدان الشَّرابِ على الظَّما فى كل قلبٍ غُلَّةٌ ليس تُنْقَعُ[3]

ويُتَوَفَّى عبد الله فكرى فى سنة ١٨٨٩ وكان رفيقه فى وزارة الثورة ، وكان قبل ذلك من أخدان شبابه. وكان أديبًا بارعًا وإن ظل متمسكًا بطريقة السجع القديمة. ولما نزل به نبأ وفاته تأثر تأثراً عميقًا ورثاه بأبيات رقيقة من مثل قوله :

فإن يَكُ ولَّى فهْو باقٍ بأُفْقِهِ كنجمٍ يشوقُ الناظرين بهاؤُهُ

وجاءه نعى الشيخ حسين المرصفى الذى طالما أشاد به فى كتابه

(١) الوغى : الحرب . حاسر : مكشوف .
(٢) الغمرة : الشدة . غيابتها : ظلمتها . تنجل : تنكشف .
(٣) الغلة : حرارة العطش . تنقع : تزول .

« الوسيلة الأدبية » وأمضَّه الحزن فبكاه وبكى معه عبد الله فكرى وبكى معهما الوطن ، بل لقد مضى يبكى نفسه وشبابه حتّى غدا كما يقول « أشلاء همة » لايكاد يسمع ولا يبصر ، يقول :

أخلقَ الشَّيْبُ جِدَّتى وكسانى خِلعَةً منه رَثَّةَ الجِلْبابِ(١)
ولَوى شَعْرَ حاجِبى على عيْـ ـنَىَّ حتى أطلَّ كالهُدَّابِ(٢)
لا أرى الشَّىْءَ حين يَسْنَحُ إلا كخيالٍ كأَننى فى ضَبـابِ(٣)
وإذا ما دُعِيتُ حِرْتُ كأَنى أسمعُ الصوتَ من وراءِ حجاب
كلما رُمْتُ نهضةً أقعـدتْنى ونيَـةٌ لا تُقِلُّهـا أعصابى(٤)
لم تَدَعْ صَوْلَةُ الحوادث منى غير أشلاءِ هِمَّةٍ فى ثيابِ(٥)
فجعتْنى بوالدىَّ وأهْـلى ثم أنحتْ تكُرُّ فى أترابى
كلَّ يومٍ يزول عنى حبيبٌ يا لقلبى من فرقـة الأَحْبابِ
أين منى حُسيْنٌ ؟ بل أين عبد الله ربُّ الكمال والآدابِ
مضيا غيرَ ذُكْرةٍ وبقاءُ الذِّكْر فَخْرٌ يدوم للأعقـابِ

ويفجؤه نعى زوجته زهرة حديقته التى كان يفوح شـذاها فى روضته ، والتى ظل أريجها يتضوّع من بعده فى بيته ، ويئن أنينا ويُعْوِل عويلا ، ويبكى وينوح فإن التى كانت تنشر أجنحتها على فلذات كبده ، والتى كان يظن أنها ستكون أول من يلقاه فى وطنه بعد طول غيبته وأول من يضمه إلى صدره ويدفئه بحرارة شوقه صوَّح عود شبابها الناضر ، فيا للفجيعة ، ويا لحرقة الحزن الذى يشعل فى قلبه قطعاً

(١) أخلق : أبلى . الجدة هنا : الشباب . رثة : بالية .
(٢) الهداب : مفرد أهداب ، وهو خمل الثوب .
(٣) يسنح : يعرض ويبدو .
(٤) ونية : ضعف . تقلها : تحملها .
(٥) صولة : سطوة . أشلاء : بقايا .

من النار ما يزال لهيبها يتصاعد ، وباللوعة التى لا تخمد ولا تنطفىء ، يقول :

لا لوعتى تَدَعُ الفؤادَ ولا يَدى ... تقوى على ردِّ الحبيب الغادى[1]
يا دهرُ فِيمَ فجعتَنى بحليـلة ؟ ... كانتْ خلاصة عُدَّتى وعتادى[2]
إن كنت لم ترحم ضَناى لبُعْـدها ... أفلا رحِمْتَ من الأسى أولادى؟
أفردتهنَّ فلمَ ينَمْنَ تَوَجُّعـاً ... قَرْحى العيون رواجفَ الأكباد[3]
ألقيْنَ دُرَّ عقودهن ، وصُغْنَ من ... دُرِّ الدموع قلائدَ الأجيادِ[4]
يبكين من وَلَهٍ فِراقَ حَفِيَّةٍ ... كانتْ لهن كثيرةَ الإسعادِ

ويمضى فى عويله وأنينه والدموع تتساقط على خديه ونار الحزن الممض تحرق أحشاءه ، وينظر من حوله فيجد رفاقه لا يزالون يتخاصمون خصاماً عنيفاً فيما كان من أمرهم أيام الثورة ، ويصيبه رَذاذ من هذا الخصام ، ويأسى أسًى شديداً . ويتمنى لو استطاع النسيم أن يحمل إلى النور الذى خبا فى التراب تحيته وسلامه يقول :

سِرْ يا نسيمُ فبلِّغِ القبر الذى ... بِحِمَى الإمام تحيّتى ووِدادى
أخبِرْهُ أنى بعده فى معشرٍ ... يَسْتجلبون صلاحهم بفسادى

ويعصف به الحزن حتى ليمرض مرضًا شديداً ، فينصحه الأطباء بأن يترك « كولومبو » إلى هضاب سرنديب الداخلية ، ويحاول رفيقه يعقوب سامى أن يأسو جرحه ، فيزوجه من ابنته . وينزل بها منذ سنة ١٨٩٠ مدينة « كندى » فى وسط الجزيرة ويتبعه ختنه و بعض رفاقه . وفى ديوانه بيتان نظمهما حين ورد عليه بسرنديب نعى إحدى فتياته ، وفيه أيضًا مرثيتان لابنه على يبكيه فيهما بكاء مُرًّا وليس فيهما ما يعين تاريخ وفاته وهل كانت قبل المنفى أو فى أثنائه .

(١) الغادى : الذاهب .
(٢) الحليلة : الزوجة . العتاد : ما به قوام الشىء وصلاحه .
(٣) قرحى العيون من قولهم تقرحت العيون إذا أكثرت من البكاء .
(٤) قلائد : عقود . الأجياد : جمع جيد وهو العنق .

وقد ظل البارودى طوال مقامه بكندى يهفو به الحنين إلى وطنه ، ونلاحظ منذ إقامته بها تحولا يحدث فى نفسه ، إذ أخذ يتجه إلى ربه يريد أن يلوذ بكنفه ، فقد تكاثرت عليه المحن والخطوب وتكسّرت النصال تلو النصال ، مما جعله يزهد فى متاع الحياة ، يقول :

إلامَ يهفو بحلمك الطَّرَبُ؟ أبعد خمسين فى الصِّبا أَرَبُ؟[1]

ويتعمقه التفكير فى الموت وأن كأسه دائرة على كل حى ، وأن العاقل من كفّ نفسه عن اللهو ودواعيه وأخلصها لربه تائبًا مما قدم من ذنوبه توبة صادقة . ومنذ هذا التاريخ تكثر أشعاره فى الزهد ويتوجه إلى الله داعيا مبتهلا ، ويتغنى بالرسول صلى الله عليه وسلم وبهديه الكريم ، وينظم فيه قصائد مختلفة لعل أروعها ملحمته التى سماها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » وفيها يصور سيرته الذكية تصويراً بارعًا على شاكلة قوله فى وصف عروجه إلى السموات ومناجاته الذّاتَ الإلهية :

سما إلى الفلك الأعلى فنال بهِ قَدْرًا يَجِلُّ عن التشبيه فى العِظَمِ
وسار فى سُبُحات النور مرتقياً إلى مدارجَ أعيتْ كلَّ مُعْتَزِمِ
وفاز بالجوهر المكنون من كلمٍ ليستْ إذا قُرنتْ بالوصف كالكلمِ
سِرٌّ تحارُ به الألبابُ قاصرةً ونعمةٌ لم تكن فى الدهر كالنِّعم
هيهات يبلغ فهمٌ كُنْهَ ما بَلغتْ قرباه منه وقد ناجاه من أَمَمِ[2]

ومضى البارودى بجانب تغنيه على هذا الوتر الذى شده إلى قيثارته يتغنى على أوتارها القديمة ، متحدثا عن وطنه وما يقع عليه من مظالم ، وتعاوده ذكرياته الأليمة والبهيجة ، على نحو ما تصور ذلك قصيدته التى نظمها فى سن السابعة والخمسين والتى يستهلها بقوله :

---

(١) الصبا : نزوات الشباب . أرب : حاجة نفس .
(٢) أم : قرب .

بناظرِكِ الفَتّان آمنتُ بالسِّحْرِ وهل بعد إيمانِ الصَّبابة من كُفْر؟

وفيها يتحدث عن حبه القديم وشيمه الرفيعة . وفى أثناء مقامه بسرنديب كان يراسله بعض الشعراء من أمثال شكيب أرسلان ، وراسله بعض أدباء الهند . وتعلم الإنجليزية ، ويقال إنه ترجم منها بعض الموضوعات إلى العربية ، ويقال أيضًا إنه عُنى بتعليم بعض مسلمى كندى القراءة والكتابة ، حتى يعرفوا لغة دينهم الحنيف ، وكان يؤم المسلمين هناك فى بعض الجمع . وحَيَّى عباساً الثانى فى عيد الفطر سنة ١٨٩٦ تحية قصيرة ، لعله يرد إليه حريته ، ولكن عباساً أصمّ سمعه ، فصاح البارودى :

يَسْتعظمون من الحجّاج صَوْلَتَهُ وكل قومٍ بهم للظُّلم حَجّاجُ

ولا نصل إلى نهاية العقد الأخير من القرن حتى يصاب بارتشاح فى القرنيتين كاد يفقده بصيص النور الذى كان لا يزال يضىء فى عينيه ، فقررت جمعية الأطباء بسرنديب وجوب عودته إلى وطنه لمعالجته فى المُناخ الذى وُلد وشبّ وعاش فيه، وألحوا عليه أن يقدم التماسًا إلى الخديو عباس الثانى كى يرده إليه . وعاد البلبل الغريد إلى روضته فى غضون سنة ١٩٠٠ ، وردّ عليه عباس أملاكه المصادرة ، غير أن نور بصره لم يُرَدّ إليه ، فقد انطفأ نهائيًّا . ولم تكد قدماه تلمس ثرى القاهرة حتى أنشد قصيدته الرائعة :

أبابِلُ رأىَ العين أم هذه مِصْر فإنى أرى فيها عُيوناً هى السِّحْرُ

وقد مضى فيها يتغزل بفاتنات مصر مصورًا ما يدلعن فى قلوب العشاق من فتنة وإغراء لا يجدون عنهما منصرفا ولا إلى التخلص منهما سبيلا ، كما مضى يتمدح بعزة نفسه وصلابة روحه وبأسه الشديد .

وأخذت مصر تضم ابنها البار إلى صدرها حانية عليه ، وأثر فى نفسه تأثيراً عميقًا ما رآه على جسدها من جروح الاحتلال الإنجليزى البغيض وقروحه ، فتوجّع لها ولمصابها الأليم ، وتناول قيثارته يوقع عليها قصيدته البديعة :

هل بالحِمَى عن سرير المُلْكِ من يَزَعُ؟ هيهات قد ذهب المتبوع والتَّبَعُ[1]

وأخذ يتحدث عن عهد إسماعيل المشئوم ، وكيف راح غير مبكى عليه ولا مأسوف ، لما أنزل بالشعب من المظالم وكوارث الديون . وقد حيّى عباساً بعد عودته وهنأه بميلاد ابنه محمد عبد القادر فى سنة ١٩٠١ ولعل الذى دفعه إلى ذلك أن عباساً حينئذ كان يضع يده فى يد مصطفى كامل مغاضباً للإنجليز . على أن البارودى لم يسترسل فى مديحه ، ولو أنه عاش حتى رآه يخنع للإنجليز خنوعه المعروف بعد حادثة الجيش فى سنة ١٩٠٦ إذ مضى يشيد بقائده كتشنر وصنيعه فيه ، وكان أعلن من قبل عدم رضاه عنه ، ثم عاد يسترضى الإنجليز ويستعطفهم ،ولو أن البارودى عاش حتى رأى هذا الخنوع ما حدثته نفسه بمديحه، ومع ذلك فمدحتاه له قصيرتان ، وهما ليستا أكثر من تحية عابرة .

وقد لزم البارودى بيته ولم يختلط بأحد سوى أهله وأصدقائه المخلصين ومن أنسَ إليهم من الكتّاب والشعراء ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان إذا ناداه أحد « سامى باشا » أنشد ساخراً :

حَبَوْتُك ألقابَ العُلا فادْعُنى باسمى فما تَخفض الألقابُ حُرًّا ولا تُسْمى

وقد قرّظ الجزء الأول من ديوان مصطفى صادق والرافعى حين نشره فى سنة ١٩٠٢ كما قرظ الجزء الأول من ديوان حافظ حين طبعه . وكان له ولدان وأربع فتيات ، وحدث أن توفّيت إحدى فتياته فى ليلة زفاف أخت لها إلى زوجها ففزع فزعًا شديداً ، وواساه حافظ وشوقى ، على نحو ما يرى القارئ لديوانيهما . وقد مضى منذ أوبته إلى وطنه يهب الشطر الأكبر من وقته لتنقيح ديوانه وإعداده للطبع وترتيب مختاراته المشهورة وإعدادها للنشر ، وقد جمع فيها مختارات لثلاثين شاعراً يبدءون ببشار بن برد رائد الشعر العباسى وينتهون بابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ للهجرة . ولا نصل إلى الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٤ حتى يسلم روحه الطاهر إلى بارئه ، وترتجّ مصر والشرق العربى لنعيه ، ويبكيه

(١) يزع : يمنع ويدافع .

الشعراء ويندبونه ندبًا حارًّا، ويجمع ندبهم وبكاءهم خليل مطران فى كتاب ويذيعه. وقد نهضت أرملته من بعده بطبع المختارات فى أربعة أجزاء كبار ، كما نهضت بطبع جزءين من ديوانه ينتهيان بقافية اللام قام على طبعهما وشرح أشعارهما محمود الإمام المنصورى أحد علماء الأزهر . وفى سنة ١٩٤٠ عهدت وزارة التربية والتعليم إلى الأستاذين على الجارم ومحمد شفيق معروف بطبع الديوان ، فنشرا منه جزءين ينتهيان بقافية الكاف. ولا تزال تنتظر النشرَ بقيةُ الديوان النفيس الذى رقى بصاحبه إلى قمة المجد الأدبى الخالد .